قصص معاصرة

الضحى العالى

يوسف أبو رية



دار شهدي للنشر

إهـــــــداء2005

أ/إبراهيم منصور غنيم

القاهرة

إلى ابراهيم منصور

كل التقدير والإعتزاز

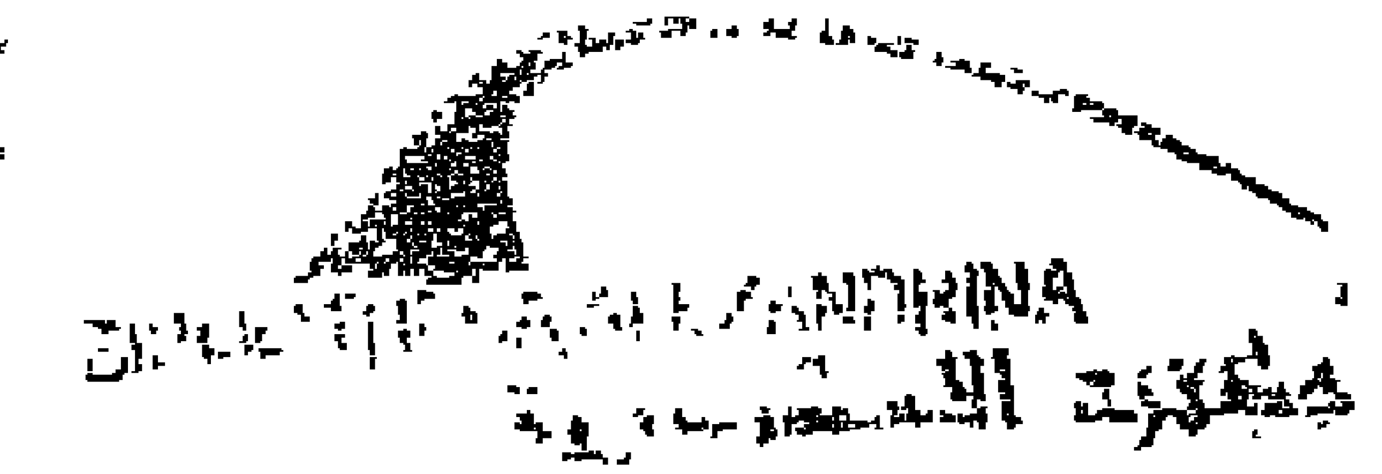
مع أصدق تحياتي

يوسف أبو رية

٨٥/٣/٣١

الضحى العالى

يوسف أبو رية



دار شهدي للنشر

تصميم الغلاف : الفنان عبد العزيز جمال الدين

الضحى العالى
قصص قصيرة معاصرة
الطبعة الأولى
ينـاير ١٩٨٥

دار شهدى للنشر والتوزيع

في البـــدء كان النهر يمشي وحيدا في الارض السوداء ، وماؤه حين كان لا يجد النبت الذي يشربه يعود الى النبع ، أو يندفق في بحر الملح . وفي مساء ليلة غاب عنها القمـــر حدث النهـــر نفسه قال : أخلق من طيني قرية أسكن اليها ، يكون لي منها أبنـــاء وحفـــدة ، يخضرون جدب الارض التي حولي .

وفوق تل يطل على حافة النهـــر ، تخلقت دار من طين ، عمـــرها رجـــل قد من طمي أخضر ، وامرأة نبتت ذات صبح من تحت ابطه الخشن . جاب الرجـــل المكشوف السوءة جهة المشرق وجهة المغرب ، وسمي النهر باسمه ، وعرفه اسم الشجر والطير والحيوان ، وقال : ها قد عرفت كل الاسماء ، فلاسم قريتي التي أسكنها .

وخط بأصبعه على التراب الناعم : ((الجزيرة البيضاء)) وقال لنفسه : ذلك أني سأدهن داري بجير أبيض ، كذلك سيدهن أبنائي وحفدتي دورهم بالجير الابيض .

خبز الصفار

البنت التى جلست بجوار الفرن
شيدت بيتها بحجرين كبيرين وخشبة
عريضة ، أنامت الرحى وقالت : هى
الفرن الذى سأرمى فيه أرغفتى .

جلبت الماء من الطلمبة القريبة ،
عجنت به الطين الذى سوت منه أرغفة
تقافزت بين يديها فى الصفيحة الصدئة ،
والولد أعطاها ورقتين قال : اشترى لنا
غداء من السوق حتى أعود من
الشغل .

وذهب الى هناك ، تحت الشجرة
التى تغطى سطح الدار ، وتنام أغصانها
على السور المطل على الشارع الكبير .

أمسك العصا وقال للأولاد : انحنوا على شـــجر القطن ، واياكم أن أعثر على « لطعة » تغفلها عيونكم .

وقال لنفسه : هكذا كان الخولى يقول للأنفار ، لكن المهندس الذى جاءه راكبا فرسا ، ضربه فى وجهه لمـا عثر على الدود يأكل الورقة .

جاءت البنت اليهم وقالت : ما رأيكم لو خبزنا بعجين حقيقى .

رد الولد الواقف : أنا أحضر الدقيق .

ورد الولد المنحنى : وأنا أحضر الكبريت .

لمـا دخل من الباب المفتوح على الحوش ، رأى أمه جالســة تغنى ، ظهرها الى الباب ، ووجها الى الوابور تنظف ثمار الكوسة .

غافلها وفتح باب الحجرة المقابلة ، المعتمة ، نافذتها مسدول عليها الخيش ، وبقعــة نور ضئيلة تسقط من منور السطح على كيس الذرة ، و « قفــة » الدقيــق كانت فى الركن مفرودا عليها جلباب أبيــه القديم ، رفعه بحذر ، ومد قبضته يملأها ليفرغها فى حجره .

حين مرق من ضلفتى الباب واجهته أمه عنــد الزير تملأ الكوز ، سألته عما كان يفعل بالحجرة قال : كنت أريد لقمة من المشنة .

وأسرع الى الحوش حيث وجدهم يقيمون الفـــــرن بأحجـــــار صـــغيرة ، يلصقونها بطين قطع من بين عنق الطلمبة .

والبنت كانت تجمع أعواد الحطب والقش من حظيرة الدجاج ، تصفه بجانب الجدار ، ثم جلست تخلط الدقيق بالماء فى صفيحة قديمة ، تضربه بكفها الصغير حتى صارت له فقاقيع تبقبق طاردة الهواء المحتشد ، كانت تود لو تسمع له ضربات تهز أركان الدار ، كعجين أمها الذى تتكفــأ عليه من أول الليـــل حتى مطلع الفجر ، وقالت البنت لنفسها : العجـــين لن يخمـــر ، ولن ينتفخ حتى يندفق على جوانب الصفيحة لأنى لم أسم عليه .

حركت شفتيها باسم الله الرحمن الرحيم ، ثم قـــرأت الفاتحة التى حفظتها عن أبيها .

صنع الاولاد للفـــرن فتحة كبيرة يدخلون منها النار ، وفتحات صغيرة ضيقة يخرج منها الدخان ، فى النهـــــاية مددوا الصفيحة الصدئة على سطح البنـــاء ، ودعمـــــوا منافذها بالطين والحصى .

وفكروا : فى رمضان سنأتى بالكوز المثقوب من أسفله ، لنرش عليه العجينـــة خيوطا رفيعة لتكون الكنـــــافة ، أو نوزع العجينة قطعا صغيرة لتكون القطايف .

مسح الولد خيط المخاط الذى سال على شـــفتيه ، وهيـــأ عود الثقاب الذى يحكه بجانب العلبة فتخرج النار ،

لتنتشر قوية فى القش واعواد الحطب ، لما دسها فى الفتحة الكبيرة اختنق اللهب وخرج منه الدخان كثيفا يسيل له دمع العين .

قال الولد : دعنى أنفخها .

جمع الهواء فى شدقيه ، ودفعه بقوة على الجذوات الخابية ، فاستيقظ لهيبها منتشرا فى الوقيد ، قربت البنت الصفيحة ، براحتها رفعت قطعة العجين ، أرادت أن تهزها فى الهواء ، كما تفعل الخبازة لكنها اندلقت مختلطة بالتراب .

نثرت الدقيق على الخشبة العريضة ، ورمت القطعة الطرية ، ثم راحت تدفعها ما بين كفيها تحلق فى الهواء لتسقط على الخشبة مفروشة مسترقة ، رمتها على الفرن ، ورفعت خصلة الشعر التى سقطت على عينها ، أمالوا الوجوه يترقبون ، وانتظروا حتى انتفخت قطعة العجين ، وانقلب لونها حتى صارت مصفرة .

قالوا : ها هى تستوى كخبز حقيقى ، سنصنع لكل منا رغيفا ، ندع الفرن لنخبز عليه كل يوم أرغفة نأكلها ، ونوزع منها على أولاد الجيران .

انتفضوا – فجأة – على الصوت الذى خرج من النافذة : يا أولاد الابالسة .. هكذا تشعلون النار لتحرق الدار .. انتظروا حتى أذبحكم جميعا .

جمع الولد الرغيف فى كفــه ، وبقفزة كان يجــرى أمامهم ، والدجاج من حولهم يجرى فزعا ، دخلوا الحظيرة ، ومن خصاص الباب كانوا يرقبون القدم الكبيرة التى ســوت البنــاء الصغير بالارض ، واليـــد تطوح الصفيحة على سطح الدار .

جلس الولد على الارض ليقسم الرغيف ، أعطى لكل واحــد لقمــة ، مضـــوا يلوكونها بتلذذ ، قالت البنت : والله كأننا غمسناه بعسل النحل .

طفـــــل الطين

الشجرة ذات الظل فردت أوراقهــا الخضراء فوق البقرة التى تلف فى الساقية، والولد الذى يرقد تحت الجذع ، يخطط فى التراب ، قسمه أحواضا وجعـــل وسط الاحـواض قنـــاة واســعة تنتهى بدائرة هى التى سيدلق فيهـا ماء الكوز من الترعة الكبــيرة ، امتلأت الدائرة ، وتدفق المــاء فى القنــــاة المنحـدرة ، وتوزعت بين الخطوط الكثيرة يشربهــــا التراب بعطش حقيقى .

وعرف الولد أنه لا التراب ولا الماء يثمران الزهرة الخضراء ، لأنه لم يضع البذرة ، فجمع الأرض التى أعـــدها

كتلة من الطين ، عجنها بالماء ، وصاح فى البقرة لتدفع الماء لأبيـــه هناك ، أعلى الحقل ولأنها لا تخضع لصــياحه ، ضربها بالفرقلة ضربتين على كفلها .

« هكذا تسرع فيجـــرى المـــاء لأبى يروى أرض القطن ... » .

قال لنفسه حين عاد لعجن الطين وأكد :
« يبـــاع القطن فنخلع ملابسنا لنرتدى الجـــديدة ، ونقلع النعال المفتقة لنلبس الجديدة » .

خلق من الطينة جاموسة بأذنين وقرنين ، وأربعـــة سيقان بحوافر جاء بين فخذيها الخلفيتين ولصق كرة بأربعة بروزات ،و عرضها للشمس ، قال : هذا ضرعها ، لكنـــه لن يدر اللبن .. أمى تحلب جاموستنا الكبيرة ، أنال قطعـــة القشدة على الرغيف حين تضر بها فى الاناء الواســـع ، ثم تذهب بها الى السوق كل خميس ... » .

ضغط الطينة بأصابع يده ، فصارت الجاموســـة بلا شكل ...

ردد الموال : « منين أجيب ناس لمعناة الكلام يتلوه » ..
وقص — بالصـــوت المنغم — قصة الولد الذى قاتل الاجنبى والظالم ، فكانت الطينة فى يده على هيئة خفـــير بلبدة ، وشـــارب طويل ، على كتفـــه علق البـــارود ، وعرضه للشمس ، لكن الخفير سقط على وجهه فطمســـه

التراب ، عجن الطينة فى يده ، ودار خلف البقـــرة ثلاث دورات يحثها ويضربها .

أقام بالطين جدارا ، ألصق به جدرانا ثلاثة ، وجعل بها فتحتين صغيرتين ، وفتحة كبيرة ، قال لنفســـــه : هذه هى الغرفة الأولى ، سأقيم بيتا بأربع غرف وردهة وزريبة ومرحاض ، وسأحفر أمام بابه قناة تجرى فيهـــا الميـــاه ، وأغرس على حافتها الغصن فيكون الشجرة الظليلة ، التى تقعد تحتها أمى والجارات .

حين انتهى من البناء ، ســـوى الطينة بيده ، فكانت برأس وساقين ومن جنبيها صنع ساعدين فى الخصرين .

بالعصا الرفيعة شـــق فى الوجه عينين ، وثغـــــرا باسما بغمازتين وستر الرأس بالقماشة الملونة .

هذه هى العروســـة صاحبة الدار التى سترقد على السرير فى غرفة النوم ، وفى جانب من الغرفة وضع الحجر الذى فرشه بباقى القماش .

« ولكن العروسة لابد لها من عريس ... » .

أكد لنفسه وبقطعة أخرى من الطين ، صنع جســــــدا برأس كبير به شارب ممتد وحاجبان كثيفان ، ونقش فى الصدر ليصنع الشعر الغزير .

أنام العروسة على الحجر .

شعر بالدم الهادىء ينساب ما بين الجلد والعظم .

فتمنى لو عاد ضئيلا كنملة ، ودخل من الباب الضيق للبيت ، ودخل الغرفة ليتمدد الى جوارها على الحجر الوثير .

لكنه فى النهاية ، أدخل الرجل الذى صنعه ، مدده على طرف الحجر ، وراح يتأملها بحب ، وعزم على أن يدع البيت والعريسين لضوء الشمس ، ويحرسهما من أقدام الكبار والصغار .

الفـــــــارس

لمـــا طلب أبوه ذلك منه ، شـــعر
فجأة بالرجولة تملأ كيانه ، وعبر الردهة ،
تعـــثر في الحطب ، لكنـــه لم يقـــع
كما لا ينبغي للرجـــل أن يقـــع ، وهش
الدجاج المتكاثر عند باب الزريبـــــة ،
فتح هيـــكل البـــــاب المرقع بالخشـــب
القـــديم ، وحين وقعت عينــــــه على
الحمـــارة في مذودها ، شمر جلبـــــابه
حتى لا يتســـــخ بالروث الذى تكثفت
رائحته الخصبة في أنفــــه ، ضربها على
كفلهـــا ، وانحنى يفك القيـــد ، لكنهـــا
رفست رجلها بقوة في الهواء ، وما كان
من الممكن أن يسكت أو يستغيث ، زعق

بخشـــونة لم تفت على الحمارة تكلفهـــــا ، فلم تخضع الا بالعصـــا التى انهالت على جلدها ، انتهـــز الاستكانة المضمرة ، وفك القيـــد الذى علاه الوسخ .

عند الباب ... هيـــأ أبوه الغبيط على ظهـــرها ، وعقد راســـه بالمنديل الكبير وقاية من عين الشمس التى تضرب رؤوس الصغار .

أوصاه بالســـير تحت ظل الشجر ، ودس فى جيبه ربطة القروش .

قال : ستجده ضخما بحجم خالك الا أن وجه الآخر بشـــارب يحوط شدقيه ، سيسألك عن اسمك ، فاذكر له اسمى ، وان طلب علامة ، أخبره أنك كنت معى أول أمس على مقهى المدينـــــة ، وان لم يكن بالدار فاســـأل عنه زوجه ، ولا تعط القروش الا للرجل .. فان أعطاك الشىء ، فاحرص عليه كما تحرص على نفسك .. وهذا القرش لك لتشترى حلاوة من بقال قريتهم .

لمـــا استوى أمامه الطريق ، أدخل قدميـــه فى فتحتى الغبيط ، ضرب الحمـــارة على رقبتها ضربتين ، فانتفضت لتلقيه عن ظهرها ، غير أن الولد تشبث بها وأحس من لحظتها أن الحمارة تضمر له الشر .

لمـــا وصـــل (الهدار) قال لنفسه : ها هنـــا تنتهى ترعتنـــا ، يتقاطع معها المصرف الموازى لسكة الحـــديد ويتفـــرع طريقان ، الاول ممتـــد الى المدينة ، والآخـــر

يصعد الى بلدة الرجل ، بين الطريقين يتكاثر الشـــــوك الشيطانى الذى تسكنه الفئران . دخل بداية الطـــريق ، فتجمع الغبـــار حول حوافر الحمارة ، وانتشر حتى وصل وجهـــه . عن يمينه المصرف يغطيه الريم ، والطـــــريق الضيق بباطن شريط القطـــار ، وعن شماله كانت أرض (الاصــــلاح) فتذكر أن أباه كان يمتلك حمـــــارة ركوب كانوا يدعونها « حمارة الاصــــــلاح » رآها وهى تموت لمـــا أكلت من ورق القطن المسموم ، ورآها وهى نافقـــة فى ماء المصرف ، فبكى عليها .

رأى التراب مكوما على حواف الارض ، قال : هنا ترقد الثعابين والحشرات القاتلة .

ولمـــا قفزت الحمارة فجأة لتعبر القناة المحفـــــورة فى الجسر ، لعن ـــ فى سره ـــ اهمال الفلاحين .. هكذا يفعل أبوه حين يسخر من زرع جيرانه .

على البعد البعيـــد رأى الدخان يتصاعد من التراب كأفاع أهلكها العطش ، فى هذه اللحظة ، شـــعر أن عين الشمس تقصـــده هو بالذات ، فقد تسلطت على قفـــــاه وظهره ، حتى طفح جسمه كل العرق .

على طريق القطار رأى نقطة سوداء تكبر كالمارد ، وسمع صفيرا ، عرف أن القادم قطار الظهيرة ، وهـــو أحمـــر ، حين يمر يكون وقت الغـــداء ، فتخرج الانفار من خطوط القطن ، تفرغ الديدان فى النـــار ، وتجتمـــع

فى ظل الصفصافة حول مناديل الخبز والجبن والخيار المملح .

اهتزت الارض لعجلات القطار ، والمسافرون كانوا فى النوافذ وعلى الابواب ، أشار لهم بيده ، وقال لنفسه : انهم يستعدون للنزول فى محطة المدينة ، ليركب غيرهم .

كثيرا ما فكر فى السفر البعيد ، فى الخطوط بين الأنفار ، أو حين يجمع ورق الاذرة الاخضر للماشية يرى نفسه فى الحلة الانيقة ، ويرى وجوها لا يعرفها الا أنها نظيفة بملامح متناسقة ، تبتسم له ، وتقول : ها هو الولد الاعجوبة . فى السفر الى المدن ذات الشوارع المسفلتة والبيوت العالية ، لابد من المعجزة ، ما هى ؟ لا يدرى ، قد تكون القدرة على ضرب فتية حى بكامله ، وتكون الجميلة بالشرفة فتشير اليه : أرسلوا فى طلب هذا البطل .

عاد الطريق للصمت الذى لا يحركه غير حوافر دابته ، تأملها حين أرخت أذنيها ، وشعر بأنه بعيد ، وتمنى لو يعود .

لما اقترب صف أشجار (العبل) الذى يقطع المصرف ليعبر المزلقان ، عرف أنه سيجد هناك « عكاشة » بسترته الثقيلة الخضراء ، لا يقوم الا ليفتح البوابة أو يغلقها .

وأكد لنفسه : سألقى عليه السلام ، تماما كما يفعل

الرجال ، ها هو العم « عكاشـــة » فوق المصطبة ، وتحت الظل يجرى من تحتـــه ماء رائق لترعة لا يعرف اسمها . كم من حكايات سمعها عنـــه ، هو الذى تسعى اليـــه عفاريت المقتولين بالقطار ، ألفها كما ألف كلابه الراقدة تلك ، رأى وابور المـــاء فتأكد له الطريق الواسع الممتـد الى القـرية المنشودة . هـذا الطريق ينام ترابه تحت رشاش الماء .

قبل أن يدخل بين الدور رأى الصنابير يغتسل بمائها صبية كشفوا عن عوراتهم ، قال : القـــرية تنعم بالماء ، بينما بناتنـــا يذهبن بالحمير ليملأن من مكان بعيد ، ورأى رجالا يرقدون على الابواب ، بالقـــرب منهم ، ترقد الخراف والدجاج والجاموس ، ورأى شـــوارع ضيقة ، ومنازل بطابقين ، وبقالا فى دكانه يطرد الذباب ، فتذكر القرش ، بعد أن حصـــل على الحلاوة ألقاها دفعـــة فى فمـــه ، زامت عليه الكلاب ، فرفع رجله على ظهر الحمارة .

كان البـــاب ضخما ومســـودا ، يربطه بالحـــائط مزلاج خشبى متين ، وفوقه نصف دائرة كبيرة يتوزع فيها الخشب ليتجمع حول الدائرة الصغيرة ترقد بينهما حمامة تهدل .

ربط الحمارة فى قضيب النافذة ، تهب منها رائحـــة ظلام ونوم ورطوبة عطنة ، كانت ساكنة بسريرها المفروش بملاءة عليها بقع دم باهتـــة ، وحصيرها اللامع المنقـــوش والدولاب المركون على الجدار ، تجمعت عليه أشـــياء كثيرة ، ضرب الباب ضربة هينة .

خرجت العجـــوز بالوجه المحطم داخـل الطرحة البيضاء ، وحدثته بالفم الخالى من الاسنان ، قالت :ما تريد يا صبى ؟ قال : أنا فلان ابن فلان جئت أســأل عن صاحب هذه الدار ، أدفع اليه قروش أبى ، ليعطينى طلبه الذى لم يبح به .

قالت : أخبر أباك أن صاحب الدار قد قبضت عليـه شرطةالمدينـة صباح هذا اليوم ، واخبره أن العجـوز أم صاحب الدار تطلب اليك أنت صاحب المكانة أن تتوسط اليه لدى مأمور المدينة .

فى الطريق قال لنفســه : أبوك أعطـاك القروش تدفعها للرجل مقـابل شىء لا تعرفه ، والرجل قبضت عليه الشرطة .. فهـو خطير .. وللشرطة عيون فى كل أرض ، ورجالها يحملون البنـادق المعمرة ، وأنا طرقت باب رجل كرهته الشرطه ، والليـل بدأ خطوته فى هذه القـرية ، وسينتهى فى قريتى أسود كوجه العبيد .

لكز الحمارة فى جنبيها ، فاندفعت فى الطـريق بين الأشـجار ، عند بوابه القطار ، تذكر عفاريت « عكاشة » التى تفك قيد الجاموس ، وتدلق آنية اللبن فى دواليبها ، وراح يتسمع لانفاس تلهث خلف ظهره ، لا ينظر اليهـا فيحرقه الشرر المتطاير من الأفواه والعيـون ، بينما تكاثرت الأشباح أمام الحمارة ، وعلى جانبى الطريق تجـرى بسرعة ، وتنظر اليه بخطواتها المنتظمة ، والبنـادق على اكتافها ، وفى اليـد سكاكين مطفأة لا تلمع ، لو يرى وجه القمـر ، لو يرى ذبالات المصابيح عبر طـاقات الدور

المعتمـــة لكنه رأى النقطة السوداء التى تنمو وتستطيل كلما اقتربت منـــه ، لمـــا صار الوجه فى الوجه رأى الشـارب الكثيف المتدلى ، والعيـــون المظلمة العميقة كعيون البندقية ذات الروحين لطمته اليـــد القوية فصرخ الصرخة التى اهتزت لهـــــا فروع الشـــجر ، وماء المصرف ، وتراب الطريق .

الصبى والعـــانس

(أ)

الصبى الصغير جلس بين النسوة تحت شـــجرة السنط العالية فى هـــذه الظهـــيرة التى هجعت فيها الكلاب تلهث على بقع المـــاء الرطبة .

النســـوة كن يثرثرن ، ويقطفن أوراق الملوخية الخضراء من عيدانهـــا ، يكومونها فى الغربال ..

نظر اليها تمضغ العـــــود الريان الخالى من الورق ، تتمدد خلف ظهـــرها ضفيرتان ثعبانيتـــان تنبت جذورهما تحت منديلها الابيض الملون بورد صغير..احمر وأصفر تتدفق قناة صدرها الثمـــين بين ضفتى الثـــديين ، بعـــد أن تنقطع الرجل

من الشارع ، وتغلق الابواب على ظل الدور الرطبة تبقى السنطة فارهة ووحيدة ، تدارى نفسها بظلها السخى .

تنهض أمه من بين النسوة معلنه « ان العفاريت قد قيلت .. هلا قيلت » ، يصمت هو العارف أنها ستعارضها « ليرقد معى أنا الوحيدة » .

فتمشى النشوة فى فوضى دمه الحار .

تذهب صاحبة الملوخية بغربالها ، ينفضن شبابهن لتسقط العيدان على الارض تنقنق فيها خراف الجيران وجديانهم ، تغلق من خلفها بابها ذا الصوت الحزين الملول ، الصبى الصغير فى أثرها ، فى غرفتها التى تتسع للحصير والدولاب الذى تفوح منه رائحة الدسم تعلق الشاش الاسود على النافذة المضيئة .

يجلس فى الركن على الوسادة الملوثة بدم البراغيث ، يرقبها وهى تطرد الذباب من الباب الى الردهة ، ليتكوم على جدران الزير وحصير الجبن .

بعصفورة الخشب الكبيرة تغلق الغرفة ، يلحظ (محمد الجدع) التى خطها يوما بطباشير المدرسة .

تتمدد متأوهة من الركبة والمفاصل ، تعطيه ظهرها العالى ، وتأمره بالنوم الساكن فيرقد دون صوت .

(ب)

يا هذا الصبى .. اعرف أنك لا تنام ، تظل عينـــاك مفتوحتين على صورة الرجل البدوى ذى الشـارب النـــابت من اللحية الكثة .

قالت لأمك يومها : ابتعتها من السوق بعشرة قروش . قال البائع أنه الامام « على » .

أنت الآن فى انتظار يدها التى تسحبها الى جلبابك ، فسروالك ، فموضع بين فخذيك يوقظ النشـــوة النائمـــة فى جسمك الصغير .

ها هى ـــ بالفعـــل ـــ يدها تصب النار بين فخذيك ، بعد أن تفرك أصابعها لبعض الوقت ، ستلتصق أنت بها ، وتمد بالتالى يدك الى جلبابها الثقيـــل تسحبه بنعـــومة ، حتى تلمس الخشونة المبهرة .

حينئـــذ تكون هى فى الاستسلام المطلق ، فما عليـــك الا أن تعبث فى الجســـد المنساب بأفخاذه المرتفعة الممتلئة بالشـــحم ، بالثديين الراقدين ككلبين أليفين ، والسرة ـــ فوق الهضبة ـــ يحلو لسبابتك الدوران فيها ، تقـــوم بكل هذا ... فقط لا تدع لعينيك تأخذانك الى عينيها المسرورتين تحت كوعها .

وفى تمددك على الهضبة العالية ، اياك والسقوط عند الاهتزازة المزلزلة ، تحـــوط بيدك الدقيقتين الخصر الذى

لا نهاية له ، وتدع لنفسك المتعـــة الطفولية التى لا يسبقها شىء ، ولا تنتهى الى شىء .

وتحمل ضغطها المحموم الذى لا تقابله بفعل ، وحين تزفر بتنهيدتها الحارة ينبغى أن تهبط من تلقاء نفســـــك والا أسقطتك الى جوارها كعلقة ميتة .

وان حاولت مرة أخرى ستضربك بكوعها فى جنبك ، ثم باستسلام حتى يبرد جسمك .

ولا تطل النظر فى وجه الشـــيخ ذى اللحيـــــة لأنه سيرعبك .. لا تفكر كثيرا فى السيف الذى سيحضره يوما ليقطع رقبتك عقابا لك ، فيسيل دمك ساخنا على صدرها ، أو فى أمك التى تكون قد دخلت بطريقة ما وتجـــدك فى نومتك الملهوفة ، فتصفع وجهك أو تكوى جلدك بالنار .

ولا فى السر حين يرفع عنه الشاش الاسود لعيـــون صبية الشارع عبر قضبان النافذة فترجم بالحجارة .
سيذهب ذهنك فقط فى محاولة لتذكر المرة الاولى ، فلن تجدها ــ (هل تتذكر رضاعتك من ثدى أمك ؟ وهـــل تتذكر البول الذى كنت تدره فى قماطك ؟) .

هكذا وجدت نفسك معها فى ليلة من الليالى ، أو ذات قيلولة كالتى تضطجع فيها الآن ، كما وجدت جسمك الذى تكون بلبن أمك أو ملامحــــك التى ورثتهـــا عن آبائك وأجدادك .

وان كنت تذكر أمها التى ماتت ، العجوز بشـــــعرها

الابيض المشـــوب بصفرة كصفرة الدخان على شـــارب جدك .

وتذكر يوم أن حملتها الخشبة الى المقبرة البعيدة .

يومها قالت أمك : المسكينة ستعيش وحيدة ..

بعدها كان من السهل على ذهنك الصغير ألا يفـاجأ حين يعثر على جسمك ممددا على أرض غرفتهـا ، وتعلقت بحصيرها الذى ينطبع على لحمك أكثر من تعلقـك بسرير أمك .

وتندهش (لماذا هذه المرأة بلا رجل ؟ .. أليست امرأة مثل أمك ؟ فلماذا لا يكون لها رجل كأبيك ؟) .

وكانت تقول للنسوة ولأمك : هو عريسى ..

وكنت تخفض رأسك خجلا .. أو تفـر بعيـدا .. لانك تتذكر فعلة الأمس ، وتعجب من هذه المرأة الملفوفة بالطرحة البيضاء ، والتى يحترمها الناس ، ويقولون عنها : عين الكمال والعقل .

وتكون غير ذلك معك ، ترفع جلبابها حتى الرقبـة عن جسد شمعى يحتاج منك لألف فعـل ، وتقف حيـاله دون فعل ، بينما هى حين تلقى بك على هضابها المرتفعة ، تثور وتنتفض .

الضـــــيف

(١)

● لمـــا طرق علينا الباب ، قامت أختى وفتحت له ، وأمى جاءت من آخر الدار ، مسحت يدها المبلولة فى طــرف طرحتها ، وسلمت عليـــه ، فتحت باب حجرة الجلوس ، وأدخلته ، ثم طلبت منى أن أصعد الكنبـــة لأفتح الشـــــباك المطل على الحوش ، غمر الحجرة ضوء شـــديد ، وبقعـــة الشمس سقطت على الصورتين المعلقتين على الجدار .

سألته عن أمه وأخواته البنـــــات قال : الحمد لله .

وأختى كانت قد جرت الى الطاحونة، لتنادى على أبى ، الذى جاء على وجهه

وهدومه غبار الدقيق ، سلم عليه بحرارة ، وسأله عن أبيه والجماعة ، أراد أبى أن يجلس الى جواره على الكنبة فزجرته أمى « هدومك وسخة .. قم غيرها » .. وأشارت اليه بعينها .

تهامسا فى الردهة ، ثم أعطانى أبى نقودا لأشترى كوكاكولا ، وعاد ليرحب بالضيف « أهلا وسهلا. شرفت ».
لما عدت ، وجدت أمى وأختى فوق السطح ، وسمعت صوت الدجاج يكاكى ، ودبدبات الأقدام على السقف .

دخلت حجرة الجلوس حاملا الصينية ، وكنت حريصا على الزجاجة الطويلة المنتصبة ، حتى لا تنقلب على الارض ، ودخلت من الباب بجنب .

كان أبى جالسا الى جواره بهدومه المتسخة ، قام ليأخذ منى الصينية المرتعشة ، وقدمها للضيف .

كان وجهه لامعا ، وحذاؤه كان يبرق فى قدميه ، ولباسه فاخرا نظيفا ، وشعره الناعم المنسق ينام بنظام على رأسه .

قلت فى نفسى : هكذا أبناء المدن .

وتمنيت أن أكون مثله ، وأكدت أننى سأطلب من أبى قميصا وبنطلونا كاللذين يلبسهما الضيف ، وعزمت أن أغسل شعرى كل صباح ..

استأذن أبى ليبص على الطاحونة ، وقال انه سـوف يعود حالا ، وطلب منى أن أجالس الضيف .

كنت أريد أن يحادثنى عن المدرسـة لأقول له اننى (الألفـة) وأن اسمى مكتوب على لوحة معلقة على جدار الفصل والى جواره : رائد الفصـل ، وكنت أود أن أحضر له كراريسى ، لأريه نمر المدرسة ، ولأقول له اننى غاوى رسم ، ولى رسوم كثيرة معلقة على حوائط المدرسـة ، ولكنه فقط سألنى عن سنى ، ثم فاجأنى بالسـؤال عن نسوان بلدنا .

فحكيت له عن الولد (على) الذى قام بالليل ، وتسحب منا لسرير يضاجع بنت خاله التى تنام عندهم ، وكيف أنه حين خلع سروالها بالت عليه ، وقلت له اننى .. أنا نفسى ، أنام مع نسوة كثيرات من الجارات واننى نمت مع (أم محمد) على سريرها المسدول عليه ناموسية ، وهى التى طلبت ذلك ، لأن زوجها كان سهران يروى أرض القطن .

وسألنى عما اذا كنت قادرا على احضار (أم محمد) هنـا فى دارنا فكذبت ، وأخبرته أنها ليست بدارها الآن ، فقد ذهبت الى دار أبيها منذ الفجر .

لمـا عاد أبى مرة أخـرى ، رحب به وقال : زارنا سيدنا النبى ، وسأله : الوالد بخير ؟ .. قال : الحمد لله .. كلهم تمام . وطلب الضيف أن يقوم برحـلة الى الغيط ، يرى الزرع ، ويقضى يوما فى الشمس .. فاستدار أبى الى

وقال خذ الحمارة .. وفسح الاستاذ ، علي أن تعـــودا على الغداء .

عبرنا لدار الى الحوش ، رفعت البردعة من على الفـــرن ،و تحاشيت الدجاجتـــــين المذبوحتين ، ترفرفان وتنثران الدم حولهما .

سحبت الحمارة من الزريبة المظلمة ،المسقوفة بالجريد والقش ، وثبت البردعة على ظهـــرها ، وركب الضيف ، وركبت أنا أمامه ، لنخرج من البلد ، الى طـــريق المصرف الطويل .

— ٢ —

● كانت الارض التى نزرعهـا تمتـد من وراء دور العـزبة الى أرض الاصلاح البعيدة ، على رأسها ساقية وجرن يحوطه سور مشقق ، ومصلى تنام عليها الشـجرة العجوز ، وعلى جانب الجرن الدار ببابها القديم ، ونوافذها المخلعـة ، فىجذع الشـجرة عقدت مقـود الحمـارة ، واتجهت الى الدار ، قلت له : هـذه الدار عشـنا فيهـا عامين .

رفعت القفـل الاسـود الثقيـل ، ودخلنا الردهة المسقوفة بالسماء ، قلت له : نستريح قليلا .. بعـدها نتجول فى الزرع .

وقلت : كانت الدار مسقوفة ، سـقفها كان مرفوعا على جذع شـجرة كبير ، وكنـا نسمع مدة العامين صـوت « القراضة » فى قلب الجذع ، وقال أبى يومها ، انهـا القراضـة الملعونة ، سنرفع الجذع الكبير ونبدله بقضيب حـديد ، ولكن الجـذع لم يمهلنا ؛ قمنـا ذات صبح نفتح باب غرفة النوم ، فلم ينفتح ، كان السقف قد ملأ الردهة ، ولم نشـعر بسقوطه ، ومن ستر الله ، أن « السـهارة » كانت مشتعلة طول الليل ، لم تصـل نارها الى السقف ، لأن سقوطه أطفأها .

لوا شتعلت ، كنا متنا وسط النار، بعــدها حلفت أمى ألا تعيش فى هذه الدار أبدا ، وقالت لأبى نضــيع ولادنا هدرا ، وألححت أنا وأختى علىأ بى حتى وافق على ترك هذه الدار ، لنعــود الى البلد .

تركنى الضيف وراح ينظر الى داخل الحجرات .
قلت له : أما هذه فكانت حجرة الجلوس ، فرشــتها أمى بثلاث كنبات ، خاصــة وأن لها بابا خارجيــا ، كان بامكاننا استقبال الضــــيوف دون أن يدخلوا من البــاب الكبير .

وكنت أريد أن أحكى له عن أيامى فيها ، ولكنه ســـد فمى بكفــه ، ولمــا راح ينظر فى الحجرة التالية ، قلت : أما هذه الحجرة فكان بها فرن ، وهذه آثاره كما ترى ، كنــا نقضى فيها الشتاء ، كانت أمى كل مغــرب توقد الفــرن ، وتســد منافذ الحجرة ، لنجتمع كلنــا فوق قبوه ، وكان أبى يستقبل ... أدار وجهـــه المكشر وقال : أنت تتكلم كثيرا . فتصلبت فى مكانى ، وتركته يجول فى باقى الحجرات ، حتى انتهى الى الزريبة الممتدة بعرض الدار ، ثم خــرج الى الجــرن .. وقف على كومة التراب يبص على الارض من تحتــه ، خرجت اليه ،و سألته : نمشى فىالزرع ؟

كنت أرغب فى تعريفه بأنواع النبات المزروع ، وأحكى له عن جيران الارض وعن أيام الدودة ، وسهراتى فى الخص أيام زرعة الخيار والطماطم ، وعن الذئب الذى يسعى الى الحقول ليلاً ليبث الرعب فى قلوب الرجال ، وكنت أستطيع

أن أقول له اننى لا أخاف الذئب ، وكنت أود أن أكلمه عن ذئاب كثيرة ، سمعت بها من الفلاحين .

نزل عن كومة التراب ، وأمسك كفى ، سحبنى الى مدار الساقية ، وسألنى عن دور العزبة التى تقع تحت بصرنا .. فذكرت له أسماء أصحاب الدور ، سألنى عن أعمالهم ، فقلت له : كلهم فلاحون ما عدا (عبد العليم) فهو متطوع فى الجيش .. وسألنى : وهل يسكن هنا ؟.. قلت : له حجرة فى دار أبيه الكبيرة . وسألنى : متزوج ؟ قلت : زوجته من المدينة ، تلبس الروب المزركش بالورد الكبير ، وتعقص شعرها تحت منديل مزين بالترتر ، وهى خياطة تخيط الهدوم لنسوان العزبة . وللسانها لهجة لا تعرفها النسوان هنا .

استند على كتفى وقال : ولكنها لا تظهر ..

قلت : ربما تعمل داخل الدار فهى لا تذهب الى الغيط ...

وسألنى عن باقى النسوة ، فذكرتهن جميعا ، خبط بطنى بلطف ، وسألنى عن أجمل واحدة فيهن ، قلت (وهيبة) البدوية ، بنت (سليم العرباوى) وهى رغم جمالها لم تتزوج ، فالبدو لا يزوجون بناتهم لفلاحين ، وأمها (عالية) لها اتصال بالجن وتقدر أن تزوجها أحسن رجل فى الدنيا ، وهى تقول أنها لن تزوج (وهيبة)

الا لموظف من أبناء البدو يسكن المدن ، ولكن كل الفــــــلاحين هنا يحبون (وهيبـــة) ويرغبونها زوجة ، وهى تدل عليهم ، تسرح بغنماتهـــا مع أبيهـــا من الصـــبح حتى المغـــــرب ولا تكلم الرجل الغريب .

نزلنـــا عن مدار الساقية ، وجلسنـــا فوق سور الجرن، وسألنى : لكن فى العامين اللذين عشتهما هنا .. أكيد سمعت عن عـــلاقات خفية .. فحكيت له عن زوجة شيخ العزبة ، وعلاقتها بـــ (أبو طبيخ) وقلت له هى امرأة نحيلة ســـوداء جافة ، تعمل خبازة ، لكنهـــا تهتم بمظهرها ، فهى تعقـــد منديلها على جنب ، لاتفارق عينيها الكحلة ، وتقول أمى ، أنها تتكلم باليد والحاجب ، وشيخ العزبة عجوز أعور لا يكف عن الكلام يفض النزاعات بين الفلاحين ، ويصلح بين الرجـــل وامرأته ، ويدخل فى كل مشكلة ، فهو دائم التجوال ووجباته كلها من خارج داره ، ويشرف على الأنفار فى أيـــام الدودة ، ويسجل محاضر المخالفات للفلاحين ، و (أبو طبيخ) صعيدى حل بالعزبة ، له زوجة بيضاء كالشمع وبنات بيض يعملن معه فى حقله الضيق على شريط القطار ، وهو مهتم بالنحـــل ، له خلايا يخرج منها العسل كل ربيع ، وهو طويل فارع قوى ، صوته خشن يهز العزبة حين ينادى على زوجه أو بناته حين يكن بآخر الغيط .

وقد سمعت من الناس أنها تطبخ له الحمام كل ظهر ، وتنسحب خفيـــة من وراء الدور ،ولا تمشى فى طريق : بل

تخترق الزرع حتى تصل اليه فى أرضه ويناماً معا فى خص القش ، تحت شريط القطار ، وسمعت أنهم عثروا عليها مرة فى حقل الذرة ، وقد خطفوا سرواليها، ولكن شيخ العزبة زمجر فى وجه الرجال ، وسب أمهاتهم ، وقال انهم يشنعون على زوجته ، لأنها برقبة نسوانهم ، وحكيت عن (وحيدة) و (مكاوى) وكيف عثروا عليهما يوما عريانيين فى القناة الجافة وسط الزرع ، ولما سألنى عن (وحيدة) قلت له هى زوجة (مكاوى) .

فقال : اسكت .. أنت كثير الكلام .

وسألنى : نقدر نزور شيخ العزبة

قلت : لو كان أبى معنـــا .

وقلت : هو صديق أبى ، يزوره فى الطاحونة ،وكثيرا مايأتى معه ساعة الغداء ، ولما كنا نسكن هـــذه الدار ، كان يقضى معنا ليالى الشتاء ، فوق الفرن ، ويقص علينا حكايات كثيرة .

قال : اسكت .

فسكت ، أدار لى ظهره ثم قام يمشى فى الجرن ، ووقف ينظر الى الدور .

سألته : نتجول فى الزرع ؟ قال : اسكت .

وفجأة عاد الى وسألنى : لم ربطت الحمـــارة خارج الدار؟ وطلب أن أربطها على مذود الزريبة ، سحبت الحمارة الى الردهـــة .. ورفعت عنهـــا البردعة ، شــــددت باب الزريبة المرقع بقطع الخشــــب ، وربطتهـــــا على مذودها الفارغ ، وعدت اليه .

قال : ابق هنا .

- ٣ -

● قضى أبى صلاة العشاء بالدار ، افترش المصلى أمامنا ، وكنت انا والضيف جالسين اليه ، ونسمع تراتيله، ولما يختم الصلاة وسلم ذات اليمين وذات اليسار ، قــام يلم المصلى ، قال له الضيف « حرما » فردعليه « جمعا .. ان شاء الله » ونادى على أمى ، لتعد العشاء .. وجاءصوتها من الداخل : « جاهز » ثم دخلت علينـــا أختى بصينية ، بعد أن فتحت الضلفتين وضعت الصينية على منضدة بوسط الحجرة ، وعادت بالقلة فى طبق ، حملق الضيف فى وجهها، فارتعشت عيناها ، وسألت أبى ان كان يريد شيئا ، فأمرها بأن تجعــل أذنها معنــا ، قد نحتاجهــا وأشـــار الى الضيف : تفضل .

كان عــلى الصينية طبــق قشدة ، وجبــن وطعمية وحلاوة طحنية وخبز محمص ، شمر أبى كمه وردد البسملة بهمس ، ورددها الضيف بالصوت العــالى ، بعد العشاء شربنا الشاى السخن ، وقام أبى لينام ، استأذن من الضيف وقال : انتم شباب تقدرون على السهر ، ودخــل حجرته بوسط الدار ، كذلك دخلت أمى وأختى الحجرة المواجهة ، وأغلقنا الباب وبقيت أنا والضيف فى حجرة الجلوس صامتين، لا نتكلم ، حتى طلب النوم ، وصحبته الى حجــرتى ، فخلع قيمصه وارتدى جلباب أبى الفضفاض ، وسحب البنطلون من أسفل ، أطفأ النور وتمدد الى جوارى ، تنهد براحــة ، وسألنى : كيف تقضى ليلك ؟ فأجبته : فى المقهى المفتوحــة

أبوابه على المزلقان ، فهناك نشرب الشاى ، ونتفرج على فيلم التليفزيون ، ونتسلى بالسودانى واللب ، أما الرجال فهم يتحلقون الى جـوارنا ، يلعبـون الطاولة والدومينو ، ويدخنون الحشيش ، فى أيام الدراسة أذاكر ولا أسهر فى المقهى الا ليلة الجمعة ، دفعنى بيده حتى صدمت بالحائط ، وقال : نـم .. نم . فنمت ، وكنت لا أريد النوم .

فى صمت الليـل انتبهت من نومى على اليد المتوترة العرقانة تفك أزرار البيجامة وتجول فوق قلبى المنتفض .

المحـــاولـة

● بعـــد آذان العصر ، تركـت الشوارع التى نامت فيها ظـلال الدور ، واتجهـت الى الطريق الأسفلت لأعبـر الكوبرى الصـغير وأسـير على شاطىء الترعة التى تدور من بعيد حول البلد ، فاذهبالى الجبانة، هناك الكافورة العالية التى ترمى ظلها على مقبرة الجـد ، على أول الجبانة رأيت السـاقية القـديمة بقادوسها الصدىء وخشبها الذى فيـه السوس ، طلعت على مدارها ، ونظرت الى البئر الجافة ، غاصت منه المـاء ، فلم يتبق من أثرهـا الا اخضرار الريم ، ركنت على سور البئر وحاورت نفسى : أأسـير من طريق الترعة أم من طريق

المصرف ، فأنا أخاف من شـوارع الجبانة ومن أسوارها المهدمة التى يطل منها الشـجر الذى يطن بين اوراقه الذباب الأزرق الكبير .

لما رأيته من بعيد استأنست به ، واخترت الطريق ، كان حافى القدمين ، وذيل جلبابه بارز من الفتحة الجانبية ، تظهر سياقته المشعرة مشدودة العضلات تحت ثقل الدلو ، كان ينقـل المـاء الى حفرتين أمام الشـاهدين الكبيرين ، ينبت فيهما صبار محوط بسور من جريد الأقفاص . قلتله: سـلام عليكم . رد السلام وسألنى : على فين ؟ قلت : احفظ النصوص فى ظلة الكافورة عند مقبرة جدى .

نظر من الرأس الى القدمين ، ثم اقترب ليطبطب على صدرى قال : الله يعينك .

لما وصلت مقـبرة الجد وقفت فاردا كفى ، ورحت أردد الفاتحةبهمس ووجد شديد ، واقتربت من شاهـده المعمم ، وكلمته ، قلت له : ياجدى .. لم أعد اذهب الى دارك ، فأخوالى قد دب بينهمـا الشـجار الخـال الاصغر استولى على الدار وطرد الكبير الذى اسكن عياله حجرة بدار أصهاره وسافر ليجمع الفلوس التى تشترى له قطعة أرض يبنى عليها دارا جديدة ، يا جدى .. أمى تبكى عليك وكل ليلة تقرأ لروحك الفاتحـة ، وتراك فى المنام راقـدا بقميصك الابيض على سرير من الحرير الاخضر تحت تكعيبة العنب ، وحـين تقترب منك ، وتبكى ، تملس بيدك على شعرها ، وتأمر الاولاد الذين يرفرفون حولك بالاجنحـة

الشفافة ، فيجمعون لها العنب ، وتمسح لها دموعها بطرف قميصك ، وتقول لها : خذى .. خذى العنب للأولاد .

انتبهت على صوت قدمين تدوسان الورق الجـاف المنثور بين المقابر ، كان هو ، يقبل مبتسما ومظهرا ، أسنانه الصفراء بين شفتيه الغليظتين اللتين ينبت حولهما شارب كثيف مشتبك بشعر الذقن الخشن ، كان يجففهما بطرف الجلباب الذى تركـه ينزل ليستر سرواله البفتة، وظلت الكرمشة رافعة الجلباب عن الأقدام ، جلس الى جوارى فوق المصطبة ، وقال : جدك الشيخ عبد الله ؟ قلت : آ .. قال : ونعم الناس ، وسأل : وانت ابن مين من الاولاد ؟ قلت : أنا ابن بنته . قال : آ .. ماشفتش جدك لمـا كان شيخا للخفراء ؟ قلت : لأ .

تنهد تنهدة طويلة ، ومد يده يخرج العلبة الصفيح من صداره ، وراح يضع التبغ فى الورقة الخفيفة وسألنى : تدخن ؟ قلت : لا ... قال : جدك كان صاحب أبى .. وأبوك كان صاحبه ، وسألنى : أنت لاتعرفنى ؟

قلت : لا .

ضحك ضحكة طويلة ، انتهت بكحة ادمعت عينيه ، مد أصبعيه وعصر جـانب العينين وقال : أيام بعيدة . وسألنى : عندك كام سنة ؟

قلت له : أذاكر الاعدادية . قال : ما شاء الله .

ودلك فخذى بنعومة حركت دبيبا خفيفـا فى دمى ، انتظرت أن يرفع كفه ، ولكنه لم يفعل ، وحين نظرت اليه بحرج ، واجهتنى عينه الجريئة ، تنظر الى بابتسام خبيث.

انتفضت العضلات تحت سخونة كفه ، فزحزت ساقى لتنفلت من قبضته ، رفع كفه وأمسك بها السيجارة الملفوفة وقدمها الى ، قال : خـــذ نفسا . رددت بحسم وبخـــوف : لا أدخن . قال : دخنت الجوزة وأنا أصغر منك . فلم أرد .

وبدأ يحكى عن أبيه ، قال أنه تاجر القطن الشهير الذى لم تعرفه أيامى ، وان كان يعرفه جيل أبى ، كان ثريا جدا ، يملك الدار الكبيرة المسورة بسور عال ، تطل منه أشجار المانجو والجوافة التى تظللحديقة واسعة فى مدخل الدار ، وتكعيبة العنب ، تحتها الطلمبة وسط الحوض ، ماؤها يرد الروح ، والمضيفة الواسعة المفروشة بكنب ، وأخوته وأخواته وأمه الطيبة التى لاترفع الطرحة البيضاء عن رأسها . كانت تلقى الاحترام من الجميع ، ويدعونها « الحجة .. » برغم أنها لم تحج ، وأبوه الرجل النزيه كان يرتدى المعاطف الكشمير على الجلابيب الصوف ، وطربوشه الأحمر ، وادمعت عيناه حتى سالت الدمعة على شاربه ، قال : لهذا ستجدنى قد حرصت على أن أجعل لشاهـــده طربوشا أحمرَ ، وأحرص على أن اظهر مقبرته هو والحاجة بالنزاهة التى تليق بمقامها ، وكنـــت قـــد نسيت فعلته ، واندمجت فى الحكاية ، وسألته بشغف : وبعدين .. فأنا ؟

ورد على وهو يمسح دمعته بكم جلبابه المتسخ : آ .. اعرف انك تريد أن تسأل ولكن مظهرك لايدل على انك ابن ناس أغنياء ؟

وبدأ يحكى عن الموسم الذى أضاع ثروة أبيه، وانهيار بيتهم ، وموت الرجل الكبير بالسكتة وموت أمه الذى أعقبه

بفترة قصيرة ، وحياته فى القطار يبيع الناس الكازوزة فى الصيف واللب والسودانى فى الشتاء ، وهجرته للبلد ، ثم عودته اليها برغم أنه لايملك فيها قيراطا غير هذه المقبرة الفارغة الى جوار مقبرة والديه .

سألته : يعنى تبيت هنـــا ؟

لف ذراعه حـــول ظهرى ، وشدنى لأقوم ، وقال : تعال أريك بيتى . وقمت معه ، ولم يرفع ذراعه أبدا ، حتى وصلنا عند الحفرتين الممتلئتين بالماء .

● كانت الشمس قد غابت عن السماء ، وانعقدت فى الجو كتل الغبار ، والحقول من بعيد بدت فارغة، والزرع صار ممتدا فى وحدته ، والشواهد صارت موحشة ومخيفة.

سألت الرجل : ألا تخـــاف عفاريت الليـــل ؟ قال : ما عفريت الا ابن آدم . وطلب منى الدخـــول الى المقـــبرة الفارغة ، كانت مبنية بالطوب الأحمر ومفتوحة أرضها على السماء ومفروشة بالرمل النظيف .

قلت : اننى أراها من هنا . قال : لا .. حين تدخل ستشعر أنك فى بيت حقيقى . وضعت الكتاب على السور ، وأشرت الى الشاهدين : هنا أبوك وأمك ؟ أضاف :وأخوة صغار ماتوا من زمان .

وسألته : كلهم ماتوا ؟ قال : لى أخوة تعلموا مثلك ، واحد منهم لم أره من عشرين سنة ، حصل على شهـــادة

الجامعة وسافر الى الخارج ، دفع أبى عليه دم قلبه ، ولكنه الناكر للجميل ، لم يسأل عنى مرة .

وزحزح الكتاب من على السور فسقط فى الداخل ، وقال : ادخل .. ادخل . انحنيت لأمرق من الفتحة المبنية بشكل محراب الجامع ، غاصت قدمى فى الرمل فتراجعت ، ولكنه دفعنى من خلف ، فكدت أسقط على وجهى ، وقال : أدخل . قلت : تمسيت والدنيا حضلم . قال : بات معى الليلة .

قلت :لا أقدر . قال أعمل لك شايا .

ورأيت مقطفا مركونا الى جوار الحجارة التى يجعلها وسادة للنوم ، قال : كنت اتمنى لو تزوجت وانجبت ولدا مثلك ، ولكنى لم أتزوج أبدا ، كان أبى قد قرر تزويجى فى نفس الموسم الذى خسر فيه صفقته ، وأنت ألا تتمنى أن تتزوج ؟ قلت : لما انهى دراستى .. أفكر فى الزواج .

وسألنى : عمرك مانمت مع امرأة ؟

فاجأنى السؤال ، فملت برأسى الى الارض ، رفع ذقنى بأصبعه الملمومة ، وواجهنى بالنظرة الجريئة ، وقال : لاتنكسف .. قل الصراحة . قلت :لا والله .. أبدا . ألح فى السؤال : بذمتك ودينك . قلت مؤكدا : أبدا .. أبدا . قال : ولانمت مع أولاد صغار ؟

انتفض جسمى ، وبدأ العرق يتسرب من مسامى ،

فرفعت أصبعى لأمسح جبهتى فواجهتنى نظـرته الثـابتة الشغوف . قلت : أمشى . أمسكنى من ذراعى وقال : بسه بدرى .. هه .. ولا أولاد صغار ؟ قلت : لا والله . قال : عينى فى عينك .

لم أرفع وجهى اليه ، وهو مال برأسه ، وأطل على من أسفل مبتسما ، وقرب وجهه منى حتى شممت رائحة فمه ، وسألنى وهو على حالته : ولا مع حمارة ؟ أو كلبة ؟

قلت : أريد أن أمشى .

قال : أجب على سؤالى أولا .

قلت : أبدا والله .

قال : زى حالاتى .. عمرى ماعملتها .

سألته : عملت ايه ؟

أجاب : النوم مع أحد .

ثم واصل كلامه : مارأيك ؟ سألته : فى ايه ؟

قال : ننام مع بعض الليلة .

انسحبت بجسمى الى الوراء ، وحـاولت أن أملص ذراعى منه ولكن أصابعه كانت قد ماتت على زندى ، وبيده الأخرى أخرج مطواة من صداره ، فردها بنطرة واحدة ، وقربها من عنقى . قال : قلت ايه ؟

كان قلبى يخبط بعنف على صدرى ، والعرق سال من كل

جسمي ، قلت له : حرام عليك . قال : مفيش فايدة .. حدبحك .

قلت له : لاأقدر . قال : حاول .

سكت فترة طويلة ، والمطواة تحوم حول وجهى ، وهو قد عض على أسنانه الصفراء ، وسأل : هـــه ؟ ؟ قلت : أمى تسأل عنى . قال : قل لها كنت أذاكر مع زميل .

وأتى بالطوب الذى يجعل منه وسادة للنوم ، وسد به فتحة المقبرة ، وشد المقطف ، أخرج منه خلقات قديمة ، وكون منها وسادة لرأسه ، ثم أخرج وابور الجاز والكنكة ، التفت الى وقال : أعمل لك شايا .

ركن عدة الشاى ، وذهب الى الركن الآخر كاشفا عن مؤخرة يتناثر عليها شعر خشن ، يخرج من عجزه فى خط أسود الى ظهره حتى يختفى تحت الجلباب المشلوح ، لوى رأسه نحوى وقال : هنا الكنيف .

وقفت منتصبا ، ورأيت فى وقفتى رؤوس الشواهد تطل فى تطفل وطربوش أبيه الأحمر كان قريبا ودافق الحمرة مخفيا رأس الشاهد المجـــاور ، وقلت فى نفسى : الآن هو مشغول بخرائه .. وهذه فرصتك وفى قفزة واحدة كنت ممسكا بطرف الطربوش ، قافزا أمامه، داست قدمى الحفرة المبتلة، فرفعتها من الطين ، وارتميت على الأرض، وشعرت بحريق النار فى صدغى ، ولكن قمت شادا كل عضلاتى ، أجرى فى منعرجات شوارع الجبانة الضيقة ، وهو كان فى

عفرة التراب يصرخ من ورائى : حدبحك يا ابن الكلب .. حدبحك .

والمطواة كانت فى قبضته ، وسرواله الساقط بين الحين والآخر ، وكنت لا أرى شيئا أمامى ، لقد صفرت الريح فى أذنى ، وعلى طول الطريق كان الناموس الذى هاج مع قدوم الليل يضرب وجهى .

ليـــل النهـــــر

سمعت الاصـــــوات الخافتة تأتى من وراء ظهرى قلت فى نفسى : وصـــل . رأيت أشباحا سوداء فى الحافة ، بيـــد أحدهم فتيـــل تتراقص شعلته .. كانوا يحملقون بصمت وحذر فى المـــاء قـــرب الحـــافة ، قمت الى الجهة الاخـــرى ، ورأيت شبحه بينهم ، ورأيت جسما طافيا على سطح النهر ، يقبـــل جهتي ببطء ، أمسكت حديد السور وأملت راسى لأنظر، وأقبل الجسم ليمر من تحتى ، كان وجها مستديرا ينساب وراءه ، شـــعر طويل يتمـــــاوج فى المـــاء ، باقى الجسم كان غاطسا فى العمق ، فقط الوجه والشـــعر

الطويل المتماوج ، وجزء من ســاق متخشبة فى ثنيتهــا ، والجلباب كان منسحبا الى أسفل ، يبــدو فى المــاء بعيــدا كطيف .

والأشباح التى رأيتها على نور الفتيــل لمــا وصلت الكوبرى صعدت الى الجسر ، لتستقبل الجسم الطــافى من الجهــة الاخــرى ، اتجهت اليهم ، فبــدت وجــوههم المذعورة على نور عمود الشارع ، امرأة بجلباب النــوم محلولة الشعر ، تنوح نوحا خافتا ومكبوتا ، تمسك أطراف جلبابها بقبضة مشدودة متوترة ، وراءها رجل بعنق طويل وشارب معقوف ، يقبض على زندها ، يدب بأقدامه الحافية على الارض بعنف ، وشــال عمامته كان مفكوكا على كتفه ، ورجل يلبس جاكتة البدلة فوق بيجامته المخططة ، ونظارته الطبية التى كان يرفعها من حين لآخر وحبات العرق المتشبثة بجبينــه لمعت فى الضوء ، رآنى حين ظهرت عليهم فجأة ، التفت الى وجهى بسرعة ، وأهملنى لينضم الى الجماعة ، أمسكت بكف صديقى المبلولة وسألته : فيه ايه ؟

شدنى لننزل تحت الشجرة الكثيفــة الأوراق وهمس فى أذنى : غريق .

أفلت الرجل الطويل العنق يده من ذراع المرأة وانحنى على غصن جاف ملقى تحت الشجرة ، ضرب به سطح الماء ونادى على الغــريق بصوت ضعيف : حود يا طــالب الدفنة .

وتابعت المرأة نداءه : حود يا طالب الدفنة .

والرأس فوق المــاء انعكست عليه ألوان مصــابيح

النادى ،و ســـار فى اتجاه واحد كان على بعد مترين من الحافة يســير مع التيــار الهادىء ، قلت لصـــديقى الظاهر بنت . قال : بنت .

وصعدنا مرة أخرى الى الجسر ، عدل الرجل النظارة وقال : ننتظر عند حوداية البحر .. أكيد حيقف هناك .

ومشينا نحو انحناءة النهر خارج دور البلد ، وأقبلت الدراجة عليها الرجل السمين مقطوع الساقين ، كان يسحبها ولد سقط شعره على عينــه ، قال صــديقى : محمـــد النص . قلت : ماتقلوش .

سأل محمد النص : فيه ايه ؟

قال الرجل الذى يلبس النظارة الطبية : غريق .

وأمر محمد النص الولد أن يعود بالدراجة ليلحق بنا ، دسنا التراب الناعم فوق الجسر ، حين بدت قبــة المسجد بيضاء بين خوص النخيــل ، أضاء مصباحها المعلق فى الهلال الحديد ، وامتد فى المــاء شريطا من النور حتى الشــاطىء الآخر اتجهت المرأة جهة القبة ، ومدت يدها : يا شيخة آمنة.

قال صديقي : فاكرة ان الغـــريقة بنتها . سألته : بنتها ؟ قال : سابت لهم الدار من أسبوع . ســأل النص من فوق دراجتـــه : بنت مين ؟ قال صديقى : معرفش . وأكمل فى أذنى : لمــا ضربوها ولعت فى هدومها .

سألته : ضربوها ليه ؟ قال : كارهة عريسها .

جمع الرجل الطويل العنق أطراف قميصه الابيض بيده ، ونزل فى وحل الحافة ، مد الغصن حتى وصل الوجه الطافى ، وهتف بصوت مرتفع : حول يا طالب الدفنة . التف الشعر حول رأس الغصن ، وشده الرجل ، فعاد اليه الغصن ملفوفا عليه الشعر الاسود المبتل ، نفخ بضيق : مغيش فايدة . قال الرجل الذى يلبس النظارة : حتقف عند الحوداية .

وسار الرأس جهة انحناءة النهر ، طلب الولد الذى يمسك الدراجة أن أسند مكانه ليقف هو عند الانحناءة ينتظر الغريق ، أمسكت يد الدراجة من الناحيتين وشمر الولد أطراف البنطلون الى الركبتين ، وخلع النعلين أعطاهما للمرأة وسار أمامنا ليقف على جذور الشجرة التى تنبت من النهر ، سألنى النص : بنت مين ؟ قلت : ما أعرفش . سألنى : من بلدنا ؟ قلت له : الله أعلم.ودفعت الدراجةالثقيلة فوق التراب الناعم ، لنقترب من الشجرة المنتصبة بين سور المصلى ، الولد غاص فى الماء ليستقبل الجسم الذى يقبل جهته فى خط مستقيم ، لما وصل عند الحافة اصطدم بها واستدار ليخرج مرة أخرى ، فأسرع الولد اليه ، ومد يده على آخرها ، وأمسك بالشعر الطافى ، لمه فى قبضته ، وشده جهة الجسر تدحرجت المرأة جهة الجسم المكشوف الساقين ، قربت الفتيل من الوجه ، مسحته بأصابعها ، وحملقت فيه طويلا : ضنى أمك .

سأل النص : تعرفيها ؟ قالت : دى غريبة .

زفرت براحة ، تسلقت الحافة ، واقتربت منا ، وراحت تنظر الى القبة وتردد : الحمد لله . الحمد لله .

ونادت على رجلها الذى انحنى على الوجه يتـأمله : بينـا يا راجل .. بقينـا الفجـر . قام الرجل ، وترك الجثة مكشوفة الساقين والولد وقف على أحجار المصلى يغسـل قدميه ، وصرخ محمـد النص : حرام عليكو .. طب طلعوها فى المصلى . انكمش الجميـع ، وتشبثت قبضتى على يد الدراجة ، وصرخ مرة أخرى : يعنى أنا اللى أنزل أشيلها . طلب الرجل الذى يلبس النظارة من الولد أن يرفع الجثة الى المصلى ، شـخر الولد وقال : مش كفـاية .. ماتشيلوها انتـو . قال الرجل : نشيلها كلنا .

قالت المرأة لرجلها : روح معاهم . نزل الولد عن أحجار المصلى ورفع السـاقين وأمسك الرجلان الكتفـين ممدوها على قش المصلى ، والمرأة عبرت السور الواطىء وانحنت عليها ، فردت ثوبهـا على السـاقين العـريانين ولمت صدرها المفتوح ،و الولد رفع القش وغطى به الجسم ، وترك الوجه مكشـوفا ، قال النص : لمـا يطلع النهـار المركز يتصرف .

وعدنا نحو الدور ،سـار الولد سـاندا الدراجة فى المقدمة ، ومن خلفه كانت المرأة مع رجلها منهمكين فى حوار خافت ، وبالقرب منهما كان الرجل الآخر يمسح زجاج نظارته فى منديله ، وأنا وصديقى سرنا فى المؤخـرة ، سألنى : حنروح فين ؟ قلت : أى مكان .

التجـــــلى

● حين طردت النفس الأخير ، وسكن صدرها ، انسحب ضوء العين ، صرخت النســوة ومدت واحـــدة منهن أصبعين يسبــلان الجفنين ، ويســدلان الطرحة البيضاء على الوجه الذى صار أصفر بلون المصباح المعلق على الجدار.

مسح الخـــال دمعتين بطرف كمه وقال : ياعيني يا أختي . قبل ذلكبيومين وحين وصلت البلد مساء ، كان بقلبى شوق شديد للقاء البنت التى أحبهــا ، لكن أمى قالت : خالتك مريضة .. واجب تزورهــــا .

قلت : لا أحبها . قالت : عمرهاماغلطت فيك.

دفعت الباب الموارب ، ودخلت عليها غرفتها ، كانت وحيدة فى فراشها ، الغطاء على نصف ساقيها وشعرها منكوش يختلط فيه الشعر المصبوغ بالحناء بشعر عليه بقايا صبغة سوداء ، التفتت على دفعة الباب ، وكانت عيناها غائمتين لا تريان غير الدخان ، سألت : من ؟ قلت : أنا ياخالة . قالت: ألم تعثر على ابن خالتك فى مصر ؟ قلت : يا خالة مصر واسعة .. غدا يجىء . قالت وهى تبكى وكانت ترفع ذراعا تملس بها على شعرها ، ووجهها وترميها بعيدا ، ثم ترفع الأخرى تملس بها شعرها ووجهها وترميها بعيدا : ياوابور يابو عجل حديد .. هات لنا الغرايب من بلاد بعيد .. دخلت أمى ، افترشت الحصير ، واسندت ظهرها على الكنبة ، شقت برتقالة نصفين وناولتنى نصفا ، قالت : ناولها ربما تأخذ من يدك .

أخذت نصف البرتقالة ، قربته من شفتيها ، فاصطدمت به ، قالت : برتقال ؟ قلت : مصيها . قالت وقد ادارت وجهها جهة الحائط : لا .. لا أريد .. نفسى لاتقبله . تركتها مع أمى ، وخرجت أبحث عن الصحاب ، لنقضى سهرتنا ـ كالعادة ـ على غزرة « العربى » قلت لهم : خالتى مريضة . قالوا : ربنا يشفيها .

حضرت زوجات عمى والجارات لابسات الهدوم السوداء ، بحثت بينهن عن العيون التى أحبها ، واشتاق اليها فى بلاد الغربة ، صوتن كثيرا وبكين قليلا نوحن فى نفس واحد : ياخراب بيتك ياحبيبتى .

وكانت أمى قد قامتتجمع هدوم الخالة ، تعقدها فى صرة ناولتها لأختى لتذهب بها الى دارنا ، لما عادت جمعت مع أمى الدجاج الذىتكوم فى ركن مظلم عند الفرن ، ورفعا معا صورتها عن الجدار (كانت تبتسم بوجه أبيض بلون الحليب ملفوف فى طرحة خفيفة شفافة يظهر من تحتها منديل رأسها الأسود) النسوة سكتن مرة واحدة ، وانتشرن على الحصير يمصمصن شفاههن ، كانت تخرج منهن أصوات مكتومة متشنجة ، ثم بدأن يحكين عن أمواتهن ، ويذكرن أنها كانت نعم الجارة ، نظيفة طول عمرها ، عايقة ، تحب الثياب الملونة ، ولم ترفع طرحة الصلاة عن رأسها منذ أن مات زوجها ، لاتأكل الا اللقمة الحلوة ، وقلن أن ابنها هو الذى كان شرسا وحشاشا وخمورجيا ، كان يكسر لها الصينى والمرايا ولم تسترح الا حين غادرها الى مصر ، ودعين الله أن يهديه ، وأن يرحم أمه الطيبة ، لما بدأن يتململن طلبت أمى منهن أن يعدن الى بيوتهن لأنأزواجهن وعيالهن فى حاجة لهن ، أما هى فقاعدة وأنا معها ودعت الرب بأن لاتمشى لهن فى مكروه .

بقيت أنا وأمى وحدنا مع الخالة التى سترها الغطاء من الرأس الى القدم ، جلست أنا عند القدم ، وجلست أمى عند الرأس ساندة خدها على كفها ، أغفت قليلا ، ثم انتبهت فجأة تنفض عبها وتستعيذ بالله من الشيطان الرجيم . وطلبت منى أن أساعدها فى تقليب الجثة خوفا من الرائحة التى قد تنتشر منها ، رفعت الغطاء فبان وجهها ، وانكشف فخذها ، قربت أمى عينيها من وجه الخالة مدة طويلة ، بعدها وجدت ملامحها انكمشت

وانفرطت من عينيها دموع غزيرة ، وبكت بصوت عـــال لم تستطع منعه ، وراحت تعدد :

ديـــرى المخـــــدة يمين
ما نتيش غشيمـــة يابنتى
زاد علـــــى النيـــــــن
ديرى المخـــــدة شمال
ما نتيش غشيمة يا أختى
زاد علـــــى الحـــــال

أنا الذى حافظت على دموعى بكيت بكـــاء حقيقيـــا بدمـــوع وحزن شديد شعرت معه بأن جســـدى يتطهر ، ورأيت ــ فجأة ــ أن خالتى فى نومتها هذه مظلومة ، بـــل اكتشفت مرة واحدة أنها كانت طيبة جدا ، وأنهـــا كانت تحبنى كابن لها ، أمسكت كفها التى صارت عروقهـــا زرقاء تتفرغ فى جلدها الذى فقد لونه .

نامت خالتى فى طاعة على جنبها الأيسر ، لملمت ثوبها، وسترت فخذيها ، وجمعت فتحة الصـــدر فى الدبوس الذى كان مشبوكا فى جانب واحد ، حين ثقلت رأسي رحت فى غفوة قصيرة .

(رأيتنى صـــغيرا جـــدا بين يدى الله الجالس على عرشـه المضيء ، على يســـاره ســـور عـال تطل منه ألسنة اللهب المرعدة وعلى يمينه ســـور عـال تطل منه أغصـــان العنب المثقـــلة بالثمـــار انتبهت بعـــدها على صـــوت المؤذن : ســـبحان من تسمى قبـــل أن يتسمى . . ســـبحان من كان عرشـه على الماء ، ســـبحان من علم آدم الأسماء .)

شعرت ـــ فى الحال ـــ أن خالتى نائمة ، وأنها سوف تقوم من نومها حين يطلع نور الصبح .

فى الصبح أحضر الرجال المغسلة ، ادخلوها حجرة الكنب بعد أن رفع ووزع فى الشارع يقعد عليه المشيعون ، أما النعش فقد ركن أمام الباب فى جـوفه كان اللحاف يلمع حريره الاحمر ، وباقة ورد ذابلة ثبتت فى المقـــدمة عند الرأس .

خرجت خالتى من بين الضلفتين لفـــة بيضاء معقـــودة من كل جانب ، فاحت قبل أن تطرح فى الخشبة رائحة عطر عتيق ، تركنا أختى وحدها فى دار الخـــالة ، بينما سرت أنا فى المقدمة مع الرجال يتأبطنى صاحب كان معى فى الغرزة أول أمس ، والنسوة هرولن فى أعقابنا بعد أن صوتن كثيرا عندما طلت اللفة البيضاء من الباب ، وعندما توقفت خشبة الميتة ، وحرنت من الرجال تريد أن تدخـــل الدار ، قالت النسوة : يا وابور يابو عجـــل حديد .. هات لنا الغـــرايب من بلاد بعيد .

عقب صلاة العصر حضر الشيخان ، دخلا المضيفة ، ووقفت أنا فى الصف مع الرجال أستقبل المعزين يقولون : عظم الله أجركم . وأرد : شكر الله سعيكم .

بينما النسوة فى دارنا قد أوقدن النار ، وصففن عليهـــا أوان ممتلئة باللحم الذى أحضره الخال من جزار القرية المجاورة ، وبالبطاطس التى اشتريتها أنا من السوق .

قلن أنه حينما وصل مع زوجه اللابسة السواد ، صرخت النسوة فى وجهه وجددن البكاء الذى نزفته فى الصبح ، فما كان منه الا أنه سبهن جميعا وطلب منهن أن يخرسن وأن يرحن الى دورهن ، فالميتة هى أمه وليست أم أحد غيره ، وأكدن أن عينه كانت حمراء بلون الدم ..

أما أنا فقد رأيته فى الصف بين الرجال مقبلا عند أول الشارع بوجهه الضاحك لا يظهر عليه حزن .

وقالوا : ان موت أمه لم يهزه ، بل لقد كان فرحا ، فهو سيرث الارض التى سيبيعها للغريب ، ويقعد فى الدار مع زوجه التى لا تلد أبدا ، وسيرتاح من أمه التى ضربها كثيرا وكسر القلل فى وجهها ، وطعنها بالسكين حين طالبته بأن يعود للوظيفة ويدع لها الارض ترعاها .

سلم علىّ ، وقال اننى قد أوحشته ، وكيف أكون فى مصر ولا أزوره فى بيته وهمس فى أذنى أن بجيبه تعميرة نظيفة ، وأننا سوف ندخنها عقب هذه الزيطة التى لا داعى لها ، ووقف الى جوارى فى الصف يمد يده للرجال ، فى التو انتشرت رائحة الكحول من جوفه ، فتركت الصف ودخلت عند النسوة آكل طبق بطاطس أو أرز فقد شعرت بجوع شديد .

هناك عثرت عليها بينهن تخرط البصل ، ودموعها غطت العينين الجميلتين ، وسالت على خديها اللذين طلع عليهما ورد أحمر ، ابتسمت لى وهى تزيل الدموع الساقطة ، نسيت الجوع ، وحاولت أن أصل اليها .

قالت لى حين حطت الاناء على الفــرن : الليلة .. فى نفس المكان .

فى أول الليل أشعلنا النار ، وجلسنا فى الغــرفة التى بآخر الدار ، حين كان يرص الحجارة ويمد لى يده بالغابة ، قال النكتة التى أضحكتنى ، وغطت على تشنجات النســوة المكتومة فى حجرة الكنب .

فى آخر الليل كنت بين الجدارين المهدومين فى انتظارها.

الضحى العالى

— ١ —

حضر معنا عرس أبيك ، وكنا قد صلينا العصر ، وخرجنا من الجامع الى دار العروس ، وصعد معنا السلم المرتفع ، جلست بين أصحابى ، وجلس هو هناك بين الكبار حول المأذون ، وخرج فى الصورة مع العريس ضاحكا فرحا ، وفى الصورة الاخرى كان يجلس قرب الدولاب ، فالتقطت الصورة جانب وجهه فى المرآة .

وفى دارنا ، لما جاءت أمك فى السيارة الصاخبة ، رفعها أبوك بين يديه ، وأدخلها فى زحام الناس الى الصالون ، فاستدعوه من الصالة

والتقطت له الصورة بين أصحاب العرس .

هذا هو جدك يا أسماء ، الذى أشـــار الى بطن أمك بعد خمسة شهور من زفافها وقال : ولد ان شاء الله .

ضحكت أمك وقالت : أسميه باسمك .

— ٢ —

قضى الحاج صلاة الفجـــر ، وعاد الى الدار ، دفع الباب الكبير ، كانت الدار ساكنة ، الجـــدة نائمة ، وحجرتكم مغلقة ، يشتعل زجاج بابها بالنور الاحمر ، فتح البـــــاب على الجـــدة الراقدة على فراشها تئن من أوجاع رجلها ، خلع العباءة عن كتفـــه ، وعلقها على الشماعة ، اســـتدار اليهـــا :

ــ لسة نايمة ؟

نظرت اليه من تحت الغطاء ، ولم ترد ، سألها :

ـــمين حيجهز لى الفطار ؟

بحلقت فيه . ولم ترد .

ــ ما بترديش ليه ؟

ــ انت مش شايف .

ــ الهى تبقى عليلة على طول .

ــ رح يا شيخ الهى اللى ف يجى فيك . .

خرج الحاج الى الصالة ، ووقف حائرا ، فكر أن يخبط على باب حجرتكم ، لكنه تردد .

كان حين يعود من صلاته ، يجد زوج ابنـــه قد أشعلت النـــار فى الموقد ، وجلست فى ركن الحجرة ، تقسم الرغيف نصفين ، تضع النصف على الجذوات ، وتهب عليـــه بذيل جلبابها ، بعـــد أن تنتهى ندس براد الشـــــاى فى الرماد

الساخن وهو على الكنبة ، الى جواره المذياع يردد قرآن الصبح منتظرا الخبز والشاى .

هذه يا أسماء عادة جدك من زمان ، كانت جدتك تعد له افطاره ثم عماتك قبل زواجهن ، وها هى أمك تقوم بواجبها ، ولكن أباك أمرها :

— طالما أنا فى أجازة لا تلتفتى لغيرى .

حاول الجد أن يعد افطاره بنفسه ، ولم يرد ازعاج أحد ، ها هو الموقد ، وها هى زجاجة الجاز ، والبراد معلق فى مسماره ، ولكن الكوالح فوق السطح ، وهو العجوز الضعيف لن يقدر على الصعود ، قال لنفسه : بلاش النار . وحاول صنع الشاى على وابور الجاز ، ولكن أين هى علبة الكبريت ، وأين يجد علبة السكر ، وعلبة الشاى ؟

عاد الى الجدة يسألها فردت بخشونة : أنا من يومين قعيدة ، معرفش حاجة فى الدار .

كان لابد أن يخبط على بابكم ، ليوقظ أمك فتحضر له هذه الاشياء خبط الباب ، ونادى بصوت عال ، وجاءه صوت أبيك يسبه من خلف الباب ، ثم خرج اليه فى الصالة ليزعق فى وجهه : لا راحة فى شغل ولا فى الدار .

وهو الرجل الذى أدب أولاده الكبار ، ولم يزل الواحد منهم — وهو أب لأولاد وبنات — يرهب طلعته ، انسحب الجد الى حجرته ، وقعد على كنبته ، ساندا رأسه على كفه ، لا يجيب .

- ٣ -

كنا حول الموقد بحجرة الجد ، بينما المطر يخبط شيش النافذة المغلقة ، سمعنا الطرقات القوية على الباب الخارجى ، كان البوسطجى بيده مظروف ، قرأت ما به للجد فانهار على الكنبة ، كانت ادارة الآلات البخارية تأمره بغلق الطاحونة ، لأن الشروط الصحية لم تعد متوافرة لها ، فهى تقع وسط المبانى ، فى حين ينبغى أن تكون المسافة بين وابور الطاحونة وأقرب دار لا تقل عن خمسين مترا .

هل هذه نكاية من أحد الجيران ؟ لا أحد يدرى يا أسماء ، وما حدث أن الجد خرج رغم الوحل ، وسافر ليقضى ليلته فى بيت ابنته التى تسكن المدينة ، ليقابل المسئول فى صباح اليوم التالى .

وسمعنا من عمتك أنها كانت قاعدة بجوار بابها ، ووصل اليها لهاث ثقيل من جانب السلم ، راحت تنظر ، كان الجد متربعا على البسطة عاجزا عن الصعود صرخت : آبا ايه اللى جابك الساعة دى ؟

ونزلت اليه لترفعه من ذراعه ، الى الدور الخامس ، حيث الشقة .

كان جدك قد بذل مجهودا كبيرا ، فاستند منهارا على

مسند الكرسى . وتعود الجد مسك العصا ، هو الذى يسخر من أبناء جيله الذين انحنوا للشيخوخة ، وكان الجد يقعد على كرسى الصالة ، والعصا بين ساقيه يؤرجحها ، ويحادثها : ايش حال الاتنين .. بقوا تلاتة .

ظل جدك يا أسماء ، رغم هيكله الهزيل يتردد على المكاتب وراء الاوراق ، فكان يكثر من السفر ، وفى مرة جرح فى معصمه ، فقد أراد أن يركب الاتوبيس ، وما أن وضع قدمه على السلم ، حتى تحرك مسرعا ، ويد الجد بين بابه المغلق ، وظل يسحبه وهو يجرى معه مسافة طويلة .

— ٤ —

دخل يوما بعد آذان الظهـــر ، مرق من الصالة الى الحجرة بآخر الدار كانت جدتك وأمك بين الاوانى ، يلفان أوراق الكرنب على الارز ، والوابور يجلجل متداخـــــلا مع تكتكة الطاحونة ، فلم يسمعا خطو الجـــد ،الذى جلس الى طرف الكنبة بهدوء .. بعد برهة التفت اليهما وصاح : ارقصـــوا .

نظرت اليه الجـــدة مندهشة ، وقد لمت طرف اذنهـــا فى كفهـــــا : ايه .. بتقـــول ايه ؟ رد عليها : بقـــــول أرقصوا .

ولأنها لم تسمع ، رددت أمك عليها ما قاله الجـــــد ، فالتفتت اليه مرة أخرى : ليه ؟ فأجاب بفرح : الطـــاحونة مش حتقفل .

وعادت الجدة الى الملفوف تصفه فى الاناء ، وهى تقول : طيب .. مبروك . كانت الادارة يا أسماء قد سمحت بأن تعمل الطاحونة ، على أن يقوم صاحبها ببناء جدار يدور حول وابورها ليمتص قوته ، فلا يهدم دور الجيران .

وعند صـــلاة الفجر ، سمعت الجـــدة الآذان يتردد على المآذن ، ولكنها لم تسمع كحتـــه فى الحمـــام ، ولم تسمع الحنفية تصب عليها ماء الوضـــوء ، والبـــاب الكبير لم تهتز

سقاطته للدفعة القوية التى تصحب خروجه الى الجامع ، انسحبت الجدة من تحت غطائها ، فوجدته فى فراشه يرتجف ، فاقتربت منه : حاج .. مالك ؟ فنقل رأسه جهتها ببطء : هاتى بق ميه .

كان جدك يا أسماء قد استسلم للمرض ، بينما اجتمع الرجال لما أشرق النهار فى الحوش حول الاسمنت والرمل ، يرفعون الجدار ، حين سمع أصواتهم ، أصر أن يرفعوه الى هناك ليشرف على البناء ، رفضت الجدة ورفض الأبناء . وأصر بعناد ، فأحضروا له عصاه ، ورفعوه من ابطيه ، حيث أجلسوه على الكرسى ، وضع ساقا على ساق ،و التف بشاله ، فى بقعة الشمس ، بالقرب من الرجال الذين ربطوا السقالات فوق براميل الزيت ، ليضعوا الطوبة على الطوبة ، وجدك عينه عليهم ، لا تفارقهم ، وفى وقت الغداء جاءت أمك اليه بالطبق ، فراح يرشف الشربة ، ويبتلع حبات الارز بعناء .

وفى اليوم التالى ، طلع عليه نور الشمس من النافذة ، وتردد صوت الرجال ، ولم يطلب الذهاب اليهم ، ولما قدموا اليه الطبق بالشربة ، أزاحه بيده ، وظل نائما لا يفيق ، حتى يطلب الذهاب الى الحمام ، ولأنه كان يبذل المجهود الكبير ، فضلوا أن يبقوا له الاناء يبول فيه .

— ٥ —

بعد يومين أيقظوه ، فلم يستيقظ ، ظل فى غيبوبتــه يردد أنفاسه بجهد وببطء شديد ، فجعلوا السرير بعــرض الحجرة ، لتصبح رأسه جهة القبــلة ، وفى صـــباح اليوم الأخــير تمددت على الكنبــة مرهقا من الســـهر ، قرب سقوطى فى النوم ، سمعت نحيب أبيك ، كان ينشـــج يا أسماء كطفل ضـــال ، فبعد أن تولى نوبة السهر على الجــد بعــدى ، هدأت الدار ، أعمامك الكبار عادوا الى دورهم ، وعماتك رقدن فى حجرتكم ، متعبــات من عمــل اليــوم وظل أبوك وحــده ، يشرف على الجد ، قعـــد عند رأسه ، وبدأ يتأمل وجهه النحيــل وأنفاسه المجهدة ، وجسده الضامر تحت الغطاء المبلل ويده المعروقة أراد أن يرفعها لتهرش أنفـــه ، لكنها تاهت منه فى الطريق وخبطت وجه أبيك ، فأمسكها ، وقربها من عينـــه ، وتأمل وشمها المرسوم على ظاهر الكف ، انحنى عليها بشفته وقبلهـــا ، ثم وضعها بحنان على صدره ، وفى الحال انفجــر فى البكاء : يا حبيبى يا آبا .

والجد يا أسماء فى غيبوبته لا يشعر بشىء ، فقط يردد أنفاسا صعبة ، ومن حين لآخر ينشق الهواء بأنفـــه ، كنا يا أسماء لمـــا نرى ذلك نتوهم اليقظة فنميل عليه بوجوهنا ونهتف : آبا . . آبا .

يفتح عينه الغـــائمة للحظة ، ثم يعـــود للسقوط فى الغيبوبة .

وانتفض أبوك خارج الحجرة ، وجلس الى جوارى ، فزعت على صوته .

سألته : أبوك عامل ايه ؟

غطى وجهه بذيل جلبابه ، وهو ينكت جسمه بالبكاء : أبوك بيموت .. أبوك بيموت .. لازم نجيب الدكتور .

قلت : الصباح رباح .

قال : لازم دلوقت .. ابوك بيموت .

وخرجنا معا الى الشارع ، كان الليل يا أسماء ينسحب من الشوارع ونور العواميد بدأ يتجمع أسفلها .

نظرت الى السماء ، كانت الغيوم سوداء مكدسة فوق البيوت ، لما تركنا شارعنا وانحرفنا الى بيت الطبيب ، سقطت على أكتافنا حبات مطر كبيرة دافئة ، رفع أبوك نظره الى السماء بحزن ، وعاد بنظره الى ، والتقت عينانا ، وسالت الدموع على شاربه ، مسحها بكم جلبابه وتهيأ ليدق بيده على باب الطبيب .

بعد أن غادر الطبيب الدار بساعة ، انطلق صوات العمات حول الجد الذى سكنت أنفاسه ، مدت واحدة منهن يدها الى عينه فأسبلتها ، وعقدت الاخرى فكه بشال العمامة .

وما أن تنفجـــــر نور الشمس الذى سقط على زجاج النافذة ، حتى تجمع الرجال خارج الدار ، ووقف النعش على الباب ، ينتظر الجد الذى حمل على الاكتاف لتفـــرغ حجرته من وجوده المهيب ، ولتنتهى صلاة الفجر ، وليبـــدأ اليوم من الضحى العالى .

المفتـــــاح

في واحـــــدة من صحواته ، طلب الخروج الى الصالة ، فأسرعوا اليـــــه يقربون الشبشب من قدميه ، ويسندونه من الجانبين ، أنزلوه بهـــدوء ليقعـــــد على الكنبـــــة ، وتجمعوا حـــــوله ، لا يصدقون ، فقد انفتحت جفـــــونه عن حدقتيـــــه الغائمتين ، وراح يدور بهمـــــا في المكان ، تملى السقف ، ونظر جهـــــة الحمام ، وجهة الباب الكبير ، ثم عاد الى وجوههم المحملقة ، وقعت عينه على الأم ، فتأملها طويلا ، زحفت بالقـــرب منـــــه وأمسكت قدميه تدلكهما : سلامة عزايمك يا حاج .

- كانت البنات على الكراسى ، وعلى درجات السلم ، وفوق الحصير ، يحبسن دموعهن ، يكتمن العين بكف اليد ، أما الأولاد فقد مكثوا يرون المشهد متماسكين ، والولد الصغير كان معه على الكنبة يطوق ظهر الأب بذراعه .

وشردت الأم للحظة ، تخيلت حياتها المقبلة ، وحيدة مع ابنها الصغير ، فالتفتت اليه بلهفة بعد أن قطعت شرودها .

— وصى ابنك يا حاج .. وصيه على .

دفعها الولد بيده ، وصاح فى وجهها .. ايه .. مفيش عقل ؟

ورفع الأب اليه عينا متعبة ، فيها لوم شديد ، كأنه يقول : ها أنا ضعيف ومقعد ، وقد انسحبت من بدنى شدة الأب .

وكأنه يقول : ها أنت تزعق فى وجهها وأنا بينكم ، فماذا أنت فاعل بعد أن أرفع من هنا ؟

بعد العشاء طلب الخروج مرة أخرى ، ظنوا أنه يريد الحمام ، فرفعوه ، وعبروا به الصالة ، ولكنه انحرف نحو الباب الكبير ، واندهشوا : على فين يا آبا ؟ اشار بيده العظمية : ماشى سيبونى .

لم يكن من الممكن أن يتركوه ليقع ، فأراحوه ، وساروا

معـه ، فأدخلهم حجرة الجلوس ، ليقعـد على الكرسى الكبير ، خلع الشبشب ، ووضع ساقا على ساق ، ثم بدأ يتأمل السقف والنوافذ والباب والصور المعلقة ، همسوا فيما بينهم : خفف عنه يا رب . والولد الصغير بينهم يديم النظر فى وجه الأب الضامر ، وضعفه الذى يرعش البدن النحيل ، ويديم النظر فى الوشم حول أصبعه الكبير واسمه المكتوب على زنده وتذكر ــ فجـأة ــ الدولاب والمفتاح .

(كان الأب قبل سقوطه فى الغيبوبة قد ترك المفتاح ، وقال لا يفتح الدولاب غيره ، وأكدوا أنه يحفظ فلوس جنازته بين أوراقه القديمة ، عقد الولد المفتاح فى عروة القميص ، وعاش معه الأيام الأخيرة بقلق والأولاد الكبار لما يجدون الفرصة متاحة ، يحيطون به ، ويكلمونه عن فلوس الدولاب لمعرفة عددها فيعملوا حسابهم ،الموت يتكلف مبالغ باهظة ، الكفن ، وتجهيز المدفن ، وبياضه ، ثم هناك أجر الحانوتى ، والفلوس التى ستوزع على المقبرة ، وأجرة الفقيه ، والبن لقهوة المضيفة ، والحاج ليس بالرجل القليل . لابد من تشريفه بسرادق كبير ، وفتح الدولاب كان مستحيلا ، طالما الأب فى الحجرة) .

وها هم يلتفون حوله فى حجرة الجلوس ، قال لنفسه : فرصة .. أفتح الدولاب وأرى ما به .

وتسلل فى غفلة من الجميع الى حجرة الأب ، كان سريره فارغا الا من الملاءة المكورة فى ركن ومسانده المبعثرة .

رفع المفتاح من العروة ، وتقدم مرعوبا ، الى القفل ، وما أن أدخل المفتاح فى ثقبه ، حتى كانت الأم من خلفه قابضة على يده بعنف : أنا أمك .. أنا حضيع . نفض يده منها ، وقال : لا يمكن .. الفلوس من حق الجميع .

فتح الدولاب ، ومد يده تعس وسط الأوراق المكدسة ، ولكن يد الأم المدربة خطفت الصرة المعقودة باحكام ، ودستها فى فتحة الصدر ، فدب يده فى صدرها صائحا : لا يمكن .. لا يمكن .

وهى تستغيث بضعف : أنا أمك .. أنا أمك .

واستماتت على الصرة ، وصمم على اخراج الفلوس من صدرها ، فكتم أنفها وفمها بيده ، وحاصرها فى ركن الحجرة : لا يمكن .. لا يمكن .

وأخرج الصرة ، وعاد مرتعشا — بعد أن أحكم غلق الدولاب — الى حجرة الجلوس ، حيث كانوا مجتمعين حول الأب يحادثونه، وهو لا يجيب ، وقف على الباب ، فألقى عليه الأب نظرة أرعبته ، فارتد بظهره الى الصالة ، كانت الام وحدها جالسة فوق الحصير ، تنوح وتلطم خدها .

ظـل المـوت

لمــا عاد الابناء من الجبانة تكاثروا حولها وقالوا : أنت منذ اليوم معنـــا فى دار أخيك . وقالت أمهم : من ريحـــة المرحوم . ولمــا تأملوا وجهها المغضن ، اكتشـــفوا فى خطوطه وجه الأب الذى واروه التراب .

عند آذان المغرب ، أضاءوا حجرة الأب ، لتنير للروح التى تزور الأحبــة كل مساء ، وطلبوا من الشــيخ أن يتلو آيات الله لتــأنس الروح ، وتبــارك أهل الدار ، بعـــد آذان العشاء قالوا للعمة العجوز : فراش أخيك فراشك .

متواليــــات العــــــزاء :

وكانت ــ فى طلعة النهــار ــ قد أقبلت على ظهــر الحمارة السوداء الضامرة ، مرت بين الرجال القـــاعدين على الكراسى المرصوصة بجوار النعش بعـــــد أن قطعت الشارع الطويل يسحبها ابنها الكبير .

عند باب الدار ، فردت كفها على الجدار ، فقـــام رجل وساعدها : البقية فى حياتك ، وفتح لها البـــاب حيث واجهت السواد المكدس بالردهة ، وراحت تســتند على حوائط الحجـــرات بيــد ، وبالأخرى جمعت طرف الشاش حول وجهها .

النســـوة المعزيات أفسحن لها طريقا ضيقا بين ظهورهن ، وبالنظر الشــحيح لمحت على السرير ــ تحت الملاءة البيضاء ــ الجسد النحيل الساكن المســدول عليــه البياض ، تتجسد تحته تكويرة الرأس وانتصابة القدمين ، والسرير كان بعرض الحجرة ليصبح الرأس جهةا لقبــلة ، والنافذة ــ فوق السرير ــ مغلقة بالشيش والزجاج لتحمى الراقد من عين النور .

على عتبــة الحجرة كادت تسقط من الوهن ، غـــير أنها فردت ذراعيها فجأة فاصطدمتا بالضلفتين ، لتخبطــا الحائط على الجانبين بقوة ، قامت امرأة لتجلسها عنـــــد القدمين المنتصبتين .

حين ارتاحت على الارض ، تنهدت اذ أنهـــا بذلت

الجهد الكبير ، وهمهمت النسوة فيما بينهن : ما كان لها أن تجيء . وقلن أيضا : العظمة كبرت . وهمست واحدة متكومة على نفسها : أكبر منه بأربع سنين .

حين مسحت الدمعتين اللتين انحدرتا فى شقوق . الوجه ، رأت فى مرآة الدولاب وجهها وعمود السرير وساق الراقد حتى حدود العورة المطفأة .

كانت أحب الأخوات اليه ، مات زوجها من عشرين سنة ، لم ينقطع هو عن زيارتها فى العيدين والمواسم ، يزورها فى دار ابنها البعيدة ، وكانت تسعد بحضوره ، يدلل عليها من الباب شامخا بعمامته الزاهية وجلبابه السابغ الفضفاض ، ينحنى عليها بقامته : ازيك يا فاطمة . ويمد اينها كفه المجذوم — جف حتى صار كجذع شجرة سنط ميتة — ويحييه كما ينبغى للرجل المتواضع ان يحيى الرجل العالى القدر .

يفرد الحصير اللامع الملموم فى الركن ، يهزه هزتين يسقط الغبار المنتشر فى ثنايا السمار ،ويبسطه على الارض ، ويحلف عليه ألا يجلس حتى ينيم المسند على الحصير ، ويمد خلف ظهره الوسادة المكسوة بالكيس الابيض المطرز .

هكذا يبدأ عندها العيد ، وينتهى حين يفتح المحفظة البنية الكالحة ، ويختار لها الجنيه من بين الورقات الكثيرة ، تدسه فى كيس القماش المزموم بخيط يلف على رقبتها ، وها هو مستكين للغطاء المفرود عليه ، وها هو

يطيع الرجال الذين رفعوه عن سريره الى المغسلة التى امتدت بطول الحجرة ، أما هى فقد قبعت بين النســـوة ترقب الداخل والخارج ، يضيع أنينها فى العــويل المرتفع ، تراه لفـــة بيضاء نحيلة بين أذرع الرجال القوية ، مندفعة الى خارج الدار ، لتغطس فى غطـــاء النعش الممتــد أمام البـــاب ، تتدحرج بين السيقان ممسكة القمــــاش لتهتف بالصوت الباكى : بالسلامة يا أخويه .

ثم ترتكن على حائط الردهة منهارة ، فى دار واســـعة فارغة احتفظت أركانها بصريخ النسوة المتشبث .

كانت الضلفتان المفتوحتان تظهران السرير النـــائم على جنبــه ، وبقعـــة المــاء ، وقطع القمـــاش الابيض تتناثر حولها نتف القطن المبتل ، حدثت نفسها الحـــزينة قالت : ها قد رحل زوج المراتين وأبو العشرة .. الشاطر.. قضى عمره الطويل يجمع ويلملم الدور والطين والطواحين وما خرج الا بكفنه .. اليـــوم تكتحل عينه بلقيا أبيـــه وأمه ، بينما أنا المسكينة أقعد فى داره المفتوحة الابواب خائفــــة ووحيدة .

يوم الثـــــالث :

قعدت بين النســـــوة لا تنبس ، شربت القهـــــوة السادة ، وتغدت بين أبناء أخيها .

الخميس الكبـــــير :

كانت وحدها على الحصير بالردهة ، لمـــا عادوا من

المضيفة آخـــر الليـــل ودخلوا حجـــرة الكنب ، بسمعها القليـــل عرفت أنهم يتقاسمون مال أبيهم ، بعد مصـــاريف الجنازة والدفن والخميس ، جعلوا للذكر مثل حظ الانثيين ، والثمن للأم الكبيرة ، وادخروا مبلغا للاربعين ، ولما تذكروا الآية وتذكروها أرادوا ألا يغضبوا الله ، فمد كبيـــرهم يده بورقة حمراء ، ظلت فى كفها حتى نامت فى حجرة أخيهـــا المظلمة غير راضية .

فى الأربعـــين :

قضت النهار بين النسوة لا يكلمها أحـــد ، وحصلت على غدائها قرب آذان المغرب ، بينما رات البنات ـــ عقب الظهر ـــ يختفين فى الحجرة بآخر الدار ، ليوزعن فيما بينهن أنصبة اللحم ، وسمعتهن يهمسن ويكتمن الضحكات .

فى أول الليل حين طرق ابنهـــا البـــاب ، لم يمـــانع الأولاد ولا البنات ، غير أن الأم الكبيرة قالت على سبيل الواجب : دعهـــا بيننـــا تؤانســـــنا ، والدار دار أولاد أخيها .

لكنها شدت يده ليرفعهـــــا على الحمارة الســـوداء الضامرة وعادت .

بعد الرحيل

ذات عصر عاد من السفر ، دفع الباب ، فوجد حجرة الأم مفتوحة ، وهى نائمة على جنبها ، كان الشيش مغلقا ، والظلمة الخفيفة لم تجعله يلم بالمكان ، ركن الحقيبة بين الكنبة والحائط ، وقعد فأزت الكنبة من تحته ، فانتفضت الأم على الصوت ، ربعت وسط السرير ، ولمحت شبحه ، وضعت كفها على عينها وقالت : من ؟

ـ أنا .

ـ وصلت من زمان ؟

ـ لسه دلوقت .

وارتمى فى حضنها ، فأخذته بين

يديها وقبلته على خده ، سألته : تتغدى ؟

ــ شبعان .. الجماعة فين ؟

أزاحت يدها : قافلين على نفسهم أوضتهم .

عرف أنها غاضبة ، سأل : خير ؟ فيه حاجة ؟

ــ أبدا .

ولم ترد أن تحكى له ، فخرج يغسل وجهه من حنفية الصالة ، ويلم شعث شعره ، سمع أخوه دفق الماء ، فوارب الباب لينظر ، كان بالفانلة والسروال ، ابتسم له من وراء الباب ، وأقبل عليه يقبله : ازيك .

ــ الحمد لله .

وخرجت زوجه تجمع شعرها بمنديل أحمر ، سلمت عليه بخجل ، وانسحبت الى حجرتها المسدول على نافذتها قماشة تمنع نور الشمس ، همس أخوه فى أذنه :

ــ أمك زعلانة .. وأنا .

ــ بعدين .. بعدين .

وعاد الى حجرة الأم ، فسألته بعتاب : بيقول لك ايه ؟

ــ ولا حاجة .

بعد المغرب ، عاد يلبس هدومه ليخرج الى الصحاب ، فوجد على ترابيزة الصـــالة طبق خضار ، سأل الام : فيه طبق طبيخ على الترابيزة ؟

ردت بغضب : ارميه لهم .

ــ ليـــــه ؟

قالت بغضب حقيقى ، وكانت الدموع حائمة فى عينها : تحرم على لقمته .

ــ آكله أنا .

ــ أنت حر .. ما أنت صاحبه .

ــ دا أخى الشقيق يا امه .

فتركته وخرجت من الحجـــــرة ، وهى تقـــــول : اشبع به .

كان أخوه قد انتهى من ارتداء قميصـــــه وبنطلونه ، وخرجا معا .

فى الطريق الى المقهى قال : أمك لا يرضيها شىء ، رفضت الاكل معنا ، قلت لهــــا ، خدى مصاريف ، قالت مش عايزة ، البركة فى خير أبوك ، واستحلفه بالنبى أن يفهمها ، قال له : خدها على قد عقلها ، دى ست كبيرة .
قال : يا سيدى أنا خدام .

عاد آخر الليل ، وجد الام مرتكزه على الوساده تنتظر عودته ، قال : مساء الخير .

فلم ترد ، جلس على الكنبة يخلع حذاءه ، تنهدت الام وسألت : حشيشت أنت وهو ؟

ـــ احنا رجاله يا أمه .

فأمسكته من قميصه قبل أن يفك أزراره ،وصاحت : اسمع أنت وأخـــوك ، لازم تشوفوا صرفة .. تدونى كل واحـــد من مهيته عشرة جنيه ، لا تخدنى معك .. وبكت .

المنسية

- ١ -

الباب الغربى مفتوح لاستقبال هواء البحر المنعش ، وساعة الغروب ينفذ منه الضوء الاصفر الذى يستطيل حتى يرتمى على الجدار ، يتمطى ليخرج من النافذة المطلة على السلم .

من الباب الغربى تتدحرج أسماء الى الفسحة — ينتشر على أرضها تراب ناعم لا يقضى عليه ماء الطبيخ والغسيل والاستحمام .

وهناك — فى الفسحة — تعطى الطاحونة ظهرها للدار ، تطل نافذتها — المسودة القضبان — على البئر الساخنة وحفرة ماسورة العادم ، تطلق دخانا

أســود يترنح فى الهـــواء حتى يدخل عشـــة الدجاج ، فوق السطح .

هى تتدحرج تحت عشة الفرن ، بناها جدها من طوبة حمراء وطوبة سوداء ، وعرشها بالخوص والجريد ، وفرش سقفها بالقش لتحمى الفرن الراقد فىالركن كفحل الجاموس ، أسماء تنقل تراب الفرن الاســـود ، وتدســـه هنـــاك فى فتحة صندوق الغلال البارك كجمل عجوز .

وتسحب عود الحطب الجاف ، لتنكت فى التراب ، تنكت فى التراب ، بعـود الحطب ، ويدها صغيرة لينـة ، لكنها تصر ، وتخـرج الطوبة والطوبة حتى تعـــثر على الدودة ، تمسكها بين أصبعيها الصغيرين وتقربهـــا من عينها ، تركتها وتواصـــل الحفر ، هى لا تعلم أن الحفـــرة عميقة ، وبعيدة الاغوار . لا تحفرى يا أسماء ، فها هنـــا ترقد العظام ، لا تحفرى .

- ٢ -

وكانت العمات حين أقبلن ودخلن الدار قلن لأبيهـا : نوم أسماء .

وارب الشيش ، وطرد الذباب المكدس على السرير ، أخذها فى حضنه ، وكان قد لقمهـا البزازة ،وراح يهـدهد على كتفها ، هدهدة منتظمة حتى ثقلت جفونها ولم ترمـع عينها الساهمة عن وجهه ، حتى أخذها النوم .

وانطلق صراخ أمها من الخارج ، فقامت منتفضـة فزعة باكيـة ، حملها وهو حائر بها .

خرج الى الصالة ، ورأى انقباضة وجهها الصـغير ، ويدها ممدودة الى الحجرة التى ينطلق منها الصراخ ، التفت حولها العمـات ، وقلن : لا حول ولا قوة الا بالله ..

وطلبن أن يخـرج بها الى الفسحة ، حتى لا يزعجها الصراخ ، واشتد بكاؤها ، واشـتدت رغبتها فى الدخـول الى الحجرة ، وراح يجمع اللعب التى قد تلهيها كان يعرف أنها تحب ذلك القفل الاسود الكبير المعلق فى الباب الغربى ، فأخذها اليه ، ظلت تضرب القفـل فى خشب البـاب ، والصرخة لما تشتد وتصـل اليهـا ، تتوقف فجـأة

عن اللعب وتنصت ، وعبث ملامح وجهها ؛ وسمع أبوها أصوات الرجال عند الطاحونة ، يمسك أحدهم الشعلة ، والآخر قبض على ذيل الجلباب بأسنانه ، قال لنفسه : ستدور الطاحونة ، وتلغى الصوات فلا تسمعه أسماء ، ولا يسمعه الجار المتطفل .

أخذها الى نافذة الطاحونة لترى الرجال قد استماتوا على اليد الحديد يلفونها بقوة ، والطارة الكبيرة تسرع فى دورانها كثور هائج ، ومكثت تنظر حتى ملأ الدخان المكان ، فقعد بها على الكنبة فى الهواء المتجدد الى أن جاءت العمة مندفعة تجفف يدها فى صدرها ، قالت : الحمد لله .. قامت بالسلامة .

سألها : ولد ولا بنت ؟

قالت : بنت .

سألها : عاملة ايه ؟

قالت : بين الحياة والموت .

وأكدت أنها لن تعيش ، وقالت بعد أن لمت الخلقان القديمة : فى داهية .. المهم سلامة الكبيرة .

وعاد ينظر الى أسماء ، فيراها مبتسمة مستعدة للعب مشيرة الى القفل المعلق على الباب ، وضمها بين ذراعيه بفرح شديد .

اجتمعت العمات على الكنبة ،وقلن : أسماء بالدنيا .

وهمسن فيما بينهن : البنت حتة من أسماء ، نفس الوش .

قالت واحدة : بعد الشر ، أسماء جميلة .

سألهن : البنت صاحية ؟

قالت واحدة : عاشت ثلاث ثوانى ، بعدها شهقت ثلاث مرات وماتت . وطلبن من الاب التصرف فى دفنها ، قال : آخذها وأدفنها فى تربتنا بعد الظهر .

وقلن : لا تربة ولا يحزنون ، هات حد يحفر لها فى الحوش .

وخرجت الداية بالميتة ، قطعة لحم داكنة مزرقة ، أخذتها الى الحمام ، ومددتها على الطبلية ، خلعت الداية جلبابها ، وبدأت تنزح الماء من الطست ، وتتلو الآيات .

وقام الاب ليشترى قطعة القماش الابيض ، وواحدة من العمات صعدت الى السطح تمسك دجاجة ، وواحدة انكفأت على المنخل تنقى الارز من الطوب الصغير .

- ٣ -

جاء الرجل بفأسه ، رمى جلبابه على الفرن ، وعقد ذيل القميص ثم تفل فى كفيه ، ضرب الارض ضربات قوية ، وأسماء على كتف أبيها ترقب الرجل مستمتعة بمشاهدة جديدة ، رمى من الحفرة فردة نعل قديم ، وسكينة صدئة ، قلبها بين يديه ، قال : خسارة .

وركنها بجوار الجلباب ، ثم جلب الطوب الاحمر فى مقطف ، صفه الرجل فى الحفرة ، ورش عليه الرمل ، ثم صفق بيده : هاتوا البنت .

أقبلت بها الداية ، تحملها بين يديها ، ملفوفة فى كفنها ، صغيرة بطول ذراع ، العمات من خلفها لا يدرين أيحزن أم يفرحن ، الحق أن العمات ناقشن الامر فيما بينهن ، وتوصلن الى أن الميتة لا تستحق الحزن فهن لم يعاشرنها ثم أن موتها رحمة من الله ، فالام المسكينة لا تقدر على خدمة طفلتين وأسماء طيلة أيام الحمل ضعيفة هزيلة ، وان شاء الله ستفيق وتسمن بعد رحيل الاخرى .

وقف الجميع حول الحفرة الصغيرة ، ونطقت واحدة فجأة كأنها نسيت أمرا .

ـ حنسمى البنت ايه ؟ سـال الاب : لازم ؟ قال الرجل : لازم .

ردت الداية ساخطة : ولا نسمى ولا حاجة ، واحنا حنلحدها .

قال الرجل المؤمن الحريص على قدسية الموت : لازم نسميها .. ونقوم بالواجب .

قال الاب : نعمل اللى علينا . قالت الداية : نسميها المنسية .

وارتاح الجميع للتسمية ، ومد الرجل يده الى اللفة بحرص ، ورقد على ساقه ، وحطها بأمان جهة القبلة ، قرأت العمات الفاتحة ، ثم استدار الرجل ليهيل التراب من كل جانب ، فهرعت العمات الى الداخل يصحن وينفضن جلابيبهن من الغبار ، وظل الاب واقفا بينما أسماء متشبثة به ناسية العالم من حولها .

بقعـــــة دم

صممت على الرجوع بعد ما سمعت بنزول الجيش الى الشوارع ، وبعد ما وقع تحت قدمى شـــاب غرق الدم قميصـــه الابيض ، رفعته مع الاولاد على الاكتاف، وسرنا صائحين فى الشـــــارع ، فبرزت وجـــوه من الشرفات ، والنســـوة رحن يشلشلن بأيديهن ويصـــــوتن ويلطمن الخدود ، لمـــا تهـــدلت يداه ، وسكت جسمه الذى كان يرفرف ، مددناه على جنب فوق الرصيف .

لاول مرة فى حياتى أرى انســـــانا مقتولا ، بحثت عن صاحبى الذى أسكن معه ، فلم أجـــده ، وفى الشـــــارع حين

كنت عائدا رأيت جماعة ملتفة حول مذياع يقـــول نشرة سألتهم : فيه ايه ؟ قالوا : فرضوا حظر التجول .

وسرت بشعرى المنكوش واضعا عصاى تحت ابطى ، أدوس الاسفلت متعبا وأشـــد جزعى بالعافية ، نظــرت الى حذائى ، فوجدت أصابع القــدم بارزة منه . وفى الشارع الجانبى المفتوح على الميدان رأيت عربة جيش كبيرة نائمـــة على جنبها ، والنـــار تنهش فى العجل ، ورائحة الكاوتش المحروق تملأ المكان . وكان الميدان فارغا الا من العســـكر المرتدين المعاطف السوداء ، كانوا يضربون بعصيهم كل من يحاول المرور ، ورأيت الطوب مبعثرا فى كل مكان ، واعلانات النيون البيضاء ، مهشمة وزجاجهـــا متجمع أســـفل العواميد .

ركنت العصا بحــذر جنب باب دكان مقفل ، وسرت كأنى لا أراهم ، وأسرع عسكرى نحـــوى وخبطنى على فخذى ، وقال : ارجع . قلت له : أنا مروح . قال لى أدخل من الشارع التانى .

كانت الحارة زحمة بوجوه تتوقع الشر ، والنـــاس يتحدثون بصــوت عال ، وعلى المقاهى تجمعوا ينصــتون الى المذياع ، وكل واحد منهم ينسج من خياله حكاية .

دخلت شارعنا ، فوجدت ابراهيم الجزمجى واقفـــا أمام جمـــاعة كبيرة يحكى لهم بكل أعصابه ما رآه عنــــد قصر العينى ، انتبهوا الى ، ومن مظهرى عرفوا أنى كنت هنـــاك ، وصاحوا فى صوت واحد : هيه .. هيه .

وساروا ورائى يصفقون ، ورأيتها فى الشرفة واقفة تعض أصابعها بقلق ، لما رأتنى اختفت لتفتح الباب .

قلت لنفسى : حتسألنى عن جوزها .

هى زوجة صاحبى الذى تركته هناك ، لا أمى ولا أختى لتقلق من أجلى ، ثم اننا متخاصمين منذ يومين ، هى تعمل موظفة ، وأنا وزوجها ما زلنا طلبة ، ودائما تعيرنا ، وتقول : ما انتوش فالحين ، ودائما تتشاجر معه ، وتترك له الشقة، وترمى له ابنه الرضيع ، وتذهب الى البلد تشكوه لأهله ، وأيام تبدى لى الكراهية ، وتحث زوجها ليطردنى ، وأيام تصير كما قطعة الحرير .

على السلم وجدتها بانتظارى ، وكنت مجهدا وكأنى أرفع حملا ثقيلا أخذتنى من يدى ، شعرت بالراحة تسرى فى عروقى ووقفت فى الصالة راكنا ظهرى على الحائط وهى تمسح وجهى بالفوطة ، وقالت : كده ما ينفعش ، انت تقلع هدومك عشان تتشطف . قلت لها : مقدرش لانى مضروب بالرش فى ضهرى . فأخذتنى الى حجرتى ، ووقفت خلفى تشد جاكتتى الكاروهات وأنا مستسلم لها تماما ، وصرخت : فيه بقعة دم على أكتافك . قلت لها : شلنا واحد اتقتل برصاصة .

وبدأت تفك أزرار قميصى بأصابع خائفة ، وقالت : ناقص البنطلون ، ابتسمت وقلت لها : لا .. أنا حاقدر . لكنها لم تخرج من الحجرة لتغلق من خلفها الباب كالعادة ، وتجرأت أنا فسحبت البنطلون بيد واحدة ، فالاحرى كانت تسند على الحائط ،وهى كانت جالسة أمامى على حافة

السرير ، لا أشعر بالخجل ، ولا هى أيضـــا تبدو خجلى ، وسحبت من يدى البيجامة وبدأت تلبسنى ، وتمددت على السرير مهدما ، بعـــد فترة وجدتها قد أعدت الطعـــــام على الترابيزة ، وتحت السرير وضعت اناء به ماء ساخن ، وضعت فيها قدمى ، وجلست أمامى تدلكها ، وكنت مخدرا من التعب وسألت نفسى مندهشا : معقول ؟

رفعت وجهها بأطراف أصابعى ، ونظرت الى عينيها المغمضتين ، وقلت لها : أنت عظيمـــــة . قالت : مصطفى من ساعة ما نزل ما رجعش . قلت أطمئنها : ما تخافيش عليـــه .

وبعد ما أكلنا وشربنا الشـــاى ، جلست على السرير فى مواجهتى ترضع ابنهـــا الذى كان ملتفـــا بأقماطه ، وبعد ما التـــأم جسمى واســـتراح ، بدأت أحكى لهـــا كل ما رأيت .

مكان للنـــــوم

قال لى صاحبى ساكن المدينـــــة :
اســـأل لك عم أحمـــد بتاع الشـــاى .
وتركنا الميدان المزدحم بالناس والعـــربات
ودخلنا شـــارعا على ناصيته بائع الكفتة
الواقف وراء الاسياخ يهب بمروحتـــــه
على النار ، فيملأ الحى بالدخان ، وكان
عم أحمـــد على الطرف الآخر واقفـــــا
على طوبة كبيرة يكبس وابور الجـــاز
الذى سود بدخانه كلمة مكتوبة بخط غليظ
فوق الكشك .

قلنا : سلام عليكم .

والتفت بوجهه البشوش الاسمر ،
ثم نزل عن الطوبة يمسح يده بكهنة قديمة:

نهـاره أبيض . وبسلم على صاحبى بحرارة وود ، ومسح لنا الكرويتة المركونة تحت حائط الجـامع ، لمـا شممت أنفى الرائحة الكريهة ، تلفت حولى ، رأيت الشبابيك الصـغيرة المنسوج عليها عنكبوت قديم ، والجدار الراشح حتى نصفه ، عرفت أننا نقعد أمام حائط الميضة .

وقال عم أحمد : وشك والا القمر .

ورد صاحبى : مشاغل يا عم أحمد .

وطلع على الطوبة ، غرف من البستلة كوز ماء ، دلقه فى البراد ، وكبس الوابور مرة أخـــرى ، ورحت تأمل الشارع ، والبنات الجميلات ،والعيال الذين يعفرون المكان بلعب الكرة ، والميدان خارج الشـارع يهـدر بالعـربات والزمامير ، وبدت زاوية كبيرة من مئذنة الجامع المطل على الميدان .

قال صاحبى : الاستاذ كان زميلى فى الجامعة .

بص لى عم أحمد وقال : يا مرحبـــا .

وقال صاحبى : من الشرقية .

صبب الشاى فى كوبين ، ومسحهما بالكهنة ، ولما ناولنى الكوب قال لى : أجدع ناس .

وتكلم صاحبى فى الموضوع ، وعرفه بأننى أبحث عن غرفة أقضى فيها مدة التجنيـد ،وعرفه بأننى سكنت بالحى

وراء الجامع الكبير ، وتركت السكن حين أنهيت الدراسة والآن أنا محتاج لغرفة ، وبالغ صاحبى فى الموضوع ، وقال اننى ابن ناس ومن الاعيان فى بلادنا ، ولا أدري ان كان الرجل اقتنع بى أم لا ، لانه سكت حتى رجع من دكان العجلاتى الذى يركن دراجاته على الرصيف المقابل ، أحضر أكوابا فارغة ، رجها فى ماءا لدلو ، وقال لصاحبى : بس خليل هو اللى يعرف الحاجات دى .

وسأله صاحبى : وفين خليل دلوقت ؟

قال : تلاقيه فى الجامع .

وصحبنا لندخل من باب الميضة ، ورأيت الرجال يقعدون على الحصير وآخرين يقفون للصلاة ، ورجالا يتوضأون فوقأ سمنت الميضة ، وصاح عم أحمد بصوت تردد صداه فى الجامع : يا خليل .

وسمعنا خليل يرد من المراحيض : أيوه يا أحمد . قال له : ناس هنا عايزينك . وخرج من الباب الذى انسحبت من فتحته جاكتة رمادى ، كان يضع على رأسه طاقية من القماش الابيض ووجهه أصفر بلون الكركم ، وكانت أصابعه تقطر الماء على البلاط المتسخ .

رآنا فاتجه الينا يخبط فى الارض بقبقاب خشب مبلول ، سلمنا عليه من وسط ذراعه وقال بصوته الناعم مخفضا وجهه على الارض : أهلا يا أساتذة . وقال عم أحمد بعد ما أشار الى : الاستاذ غريب وعايز تدور له على أوضه . أدخل ذراعه فى الجاكتة ، ولما أراد أن يدخل

الذراع الآخر تاه منه ، دار حول نفسه ، ضبط الجاكتة على أكتافه ، ثم أخرج منديلا كبيرا مكرمشا ليمسح به يده ، جفف وجهه وقفاه ،و تركه هناك تحت الياقة وقال : أنا خدام .. بس المشوار بجنيه . قلت : مفيش مانع . قال : عندى أوضة نشوفها ونرجع قبل آذان العصر .

وسرنا فى الشارع الطويل ، فوق شريط الترام الذى يلمع فى ضوء الشمس ، وصلنا مقام الشيخ المدهون بلون أصفر، وبخطوط بنية عريضة ، وقف خليل على شباكه ، وفرد كفيه وقرأ الفاتحة ، ووقفت خلفه مع صاحبى ، ورأيت الشاهد المكسو بالحرير الاخضر تنتصب حوله شموع طويلة ، ورأيت برايز الفضة المتناثرة فوق ظهره وعلى رأسه الكبير الملفوفة بعمة حمراء .

ودخلنا الشارع الضيق بالبيوت الصغيرة ، كان بداخلها نسوة قاعدات ، وعلى بلكوناتها الخشب المتشابكة غسيل يقطر الماء على الماشيين ، وخرجنا الى الوسعاية ، وسطها شاهد وحيد عليه لوحة رخام وكتابة سوداء ودجاج ينبش جريدة ناشفة ، كانت الوسعاية مرشوشة بالماء ، وهناك على المصطبة رجال يدخنون الجوزة ، وولد نحيف بشعر منكوش ، كان يرص لهم الحجارة ، ويملأ الصفيحة الصدئة بالحجارة الفارغة ،وبعيدا عنهم نام الرجل العجوز الذى يركن عصاه ومدد ساقيه المربوطتين بقماشة ، كانت المعزة تنسل فيها ، وهو لا يشعر تاركا نفسه للشمس المتسلطة على جسمه المخدر ، والى جواره فتاة تغسل مواعين ، ثوبها مسحوب عن فخدها الابيض. وقطعة كبيرة من سروالها تبدو على ناحيته ،

لم أستطع أن أرفع عينى حتى طلعت المرأة السمينة المرتدية الجلباب الملون من الحجرة المظلمة ، كانت تربط رقبتهـــا بمنديل ،وعلى رأسها اشارب أحمر يتدلى منه الترتر وخصلات من شعرها الاكرت وحلق كبير يهتز على وجهها القمحى ، لمـــا رأتنـــا مسحت يدها وركنت ظهرها على البـــاب ، اقترب خليل منها ، ووقفنا على جنب ، ضربته على أكتافه وقالت : يا واد سايب الجامع وبتلف ؟ قال لها وهو ينظـــر الى الارض : أكل العيش يا أم وردة ، ومال على أذنهـــا وكلمها بصوت واطىء ، دفعتـــه بيدها الكبيرة ، وقالت : ابعـــد يا منيـــل ، وبص الينا بخجل ، ثم مال بوجهـــه الى الارض ... وتركته واقفا مكانه ، واتجهت الينـــا ولمحت صدرها الممتلىء ، كان يطفح علىا لفتحة البيـــاض المحدد بوساخة وسواد ، وسألت : مين اللى عايز يسكن ؟ قلت لها : أنا . قالت : لو قربت شـــوية كان عندى أوضـــة خدها أفندى زى حالاتك . قال صاحبى : معهلش .. مفيش نصيب . قالت : خليـــل يعرف واحـــد تانى ياخـــدكم عليـــه .

شد خليل المنديل من خلف القفـــا ، ومسح به وجهه ، وقال : أنا واخدهم على عبده . ودخلنا الشـــارع الضـــيق الممتد من الوسعاية ، مررنا على شـــواهد كثيرة مصفوفة بطول الشارع ، وانشغلت بقراءة الاسماء المكتوبة وتواريخ الموت ، وشـــعرت بكآبة ووحشـــة ، وظلت عالقـــة بذهنى آية :

« يا أيتها النفس المطمئنة »

المكتوبة على كل رخامة ، ولما خرجنا الى النور فرحت بالزحمة والناس الذين يسعون فى كل ناحية ، وماتت الوحشة داخلى ، عبرنا الشارع ومشينا فى ظل العمارات وقلت لصاحبى : نشرب عصير .

وقفنا على باب الدكان ، وانتعشت بالرطوبة التى تهل علينا من الداخل ، بسمل خليل حين مد يده الى الكوب فوق المشمع المبلول ، شربه مرة واحدة ، وعلقت على أنفه رغاوى مسحها بمنديله ، ثم أعاده الى قفاه .

وكان منكفئا على الرصيف وراء العدة ، صندوقه مرقع بمائة خشبة ، عليه الحديدة المثنية كأنها قدم مقلوبه والى جواره كيس قديم مدلوق منه أحذية وشباشب حريمى وصنادل عيال ، قال خليل : خلى عنه .

حط كفه على جبهته وضيق عينيه ، واستمر مدة حتى سحب المسامير من فمه الفارغ من الاسنان وقال : عايز ايه يا خليل ؟ قال له : ازيك يا عم عبده . لم يرد عليه ، انشغل بدق مسمار فى حذاء معلق على الحديدة المثنيه ، وانحنى عليه خليل وأحاط كتفه بذراعه ، وهمس اليه بصوت منخفض بعدها التفت اليه الرجل ، وضيق عينيه وكان وجهه الجاف بأصداغ ممصوصة له شارب عليه صفرة الدخان ، كانت تلمع فوقه قطرات ماء ، وسأل : مين اللى عايز الاوضة ؟

اقتربت منه ، وربت بيدى على صدرى ، وقلت : أنا . سألنى : بتشتغل ايه ؟ قلت له : لسه متخرج ورايح الجيش .

قال : الاوضة اللى عندى مقدم ميتين ، وايجـارها خمستاشر . وسأله صاحبى . فين هى ؟ مسح شاربه بظاهر الكف ورشف من شاى الكوب المركون تحت قدمه ، وقال : شارعين بعد الشارع اللى قدامك . قال خليل : فوق السطح ، مستقلة بنفسها ، وبحمام جواها . قلت : نشوفها .

رفعا لرجل اصبعه أمام وجهه وقال : خمسة جنيـه قبل ما أقوم . نظرت الى صاحبى بخيبة أمل ، وقلت له : بينا نرجع مفيش فايدة ، وقال خليـل : بعد العصر أشوف لك مكان تانى .

وعدنا لنقعـد على الكرويتة تحت حائط الميضـة ، وعم أحمـد قدم لنا كوبين من الشاى الثقيل ، وكلمنى : يا ابنى أنا حسألك .

وسمعنا صوت خليـل من الداخل يؤذن العصر ، كان صوته رخوا ليس بصوت الرجل الناضج ، ومال صـاحبى على أذنى وقال : سامع صوت خليل لا قلت له : سامعه . وضحك وقال لعم أحمـد : الظاهر خليل فيه لله . نتر ذراعه وصعد على الطوبة وضحك ضحكة كبيرة أظهرت سـنتين صفراويتين بينهما فراغ وقال : ربنا يسهل لخلقه .

وبدأت الشمس تختفى وراء مئـذنة جامع الميدان ، ورمت ظلا طويلا دخل علينـا الحـارة وأمسـك عم أحمد الدلو ونثر ماءه على الارض ، وارتفع صـوت مذياع بائع الكفتة ، وفجأة رأيت « فهمى » يدخل الشـارع ، يحمـل كتابين تحت ابطه ، وحقيبته بيده ، مر من أمامنا ولم يرنى ، فنهضت لأنادى عليه : فهمى . نظر الى بدهشـة ، وقال : مش معقول .

ركن الكتـــابين على الكرويتة ، وارتمى فى حضنى ، قبلنى ، وارتاح دمى فى عروقى ، ونسيت هم المشــــاوير ، أخــذته من يده ،و كان عم أحمــد واقفا على الطــوبة يبص علينـــا ، قلت له : اعمل شاى مضبوط . قال : على عينى ، وسألنى فهمى : بتعمل ايه هنـــا ؟ قلت له ويده لم تزل نائمة فى كفى : انت اللى بتعمل ايه ؟ قال : أنا ساكن هنا ورا الجامع .

قلت له : أنا أعرف أنك كنت فى الجيزة . قال ى : ماخلتش مكان ، وكنت نسيت أعرفه على صاحبى ، قام مرة أخرى وسلم عليه ، وقال له : لا مؤاخذة . وقلت لصاحبى : فهمى زميل كلية بس قبلينا بدفعتين . وقال صاحبى : شفته كتير فى الجامعة لمــا كان يخطب . تنهد فهمى وقال : أيام ما تتعوضش .

وقصصت عليه الحكاية ،و كيف أننا من الصبح نبحث عن حجــرة ، وعاتبنى لانى لم أذهب اليـــه ، وقلت له : أنا ما أعرفش . وقال لى أن حجرته تحت أمرى ، لأعيش فيها كما أريد ، وقمنـــا فى التو ، وتركنـــا خليل ــ الذى أنهى صلاته ــ قاعدا على الكرويتة ينتظر أن أطلب له شايا ، واعتذر صاحبى وقال : معلهش ما أقدرش أطلع معـــاكم عندى مشوار . وأشــار فهمى الى البيت وقال له : لما نحب تزورنا تطلع السلم لغاية ما سقف السما يخبط دماغك ، تبص يمينك تلاقى أوضتى .

وضحكنا ثم سلم علينا وخرج الى الميدان ، ودخلنـــا الشارع الآخر لنتجه الى البيت المجاور للجامع .

كان بابه ضخما كباب الوسية ، وبعد ما عبرنا طرقة مظلمة ، دخلنا في حوش واسع مفتوحة عليه أبواب ونوافذ بدت منها دوائر سرير وكنب مفروش وتليفزيونات أمامها ناس يتفرجون ، دسنا الزبالة المبعثرة على أول السلم ، وهش فهمى القطط الملمومة عليها ، وصعدنا سلما ضيقا ومظلما درجاته متآكلة من وسطها وكأن جيشا غازيا قد مر عليها ، على السطح ، كان النور الخفيف ما يزال يعم الدنيا ، وصارت ضجة الميدان بعيدة ... والسيارات ظهرت أمامنا من فتحة السور ، وأشار فهمى وقال : هى دى أوضتى .

سألته : لوحدك ؟ قال : معى صديق من البلد وهو دلوقت فى أجازة . وأخرج مفتاحا صغيرا ، أدخله فى القفل المعلق على الرزة ، وشعرت أن الباب ضعيف لا يحمى شيئا داخله ، والحجرة مبنية بألواح خشب ومسقوفة بخوص ويتراكم على سطحها كراتين وأقفاص ، ومن ناحية برزت مدخنة الحاتى الذى يفتح على الميدان تعفر السطح برائحة تغيظ .

فى الصالة الصغيرة المعتمة رأيت وابور الجاز يتناثر حوله عيدان الكبريت واوانى قعرها مسودا ومركونة عليها أغطيتها وترابيزة خضراء عليها أطباق بلاستيك ، دفع فهمى باب الحجرة برجله ، فاهتزت الجدران وانهال على رأسى تراب من السطح ، وكان بها سرير مراتبه غاطسة الى الداخل وسرير اخر عليه الواح خشب مصفوفة عليها كتب والحذاء كان باديا أسفل الالواح ، وكنبة فراشها ممزق ، صعد فهمى عليها ورفع ترباس النافذة ، وظهر النور مرة أخرى ،

وسمعنا ضجة الميدان دائرة كطاحونة قعدت على الكنبه ، وقرأت كلمة مكتوبة بطباشير على الحائط جهـة البـاب وابتسمت ، وتأملنى فهمى ثم نظر الى الكلمة المكتوبة وقال : عشان ما أنساش . وعدت بالذاكرة لايام الدراسة ، ورأيت فى ضبابها فهمى عند سلم القـاعة فوق كتف الزميل جامعا كفيه على فمه ، وعروق رقبته كانت منفوخة عن آخـرها وهو منفعل ومتوتر والطلبة يسمعون ويتناقشون وأنا بينهم مشغول بجراءته ، ولم أك أفهم الكثـير من كلامه ، وكنت أسائل نفسى : معقـول ؟ طالب نحيل لابس قميص ألوانه باهتة وجزمته نعلها متآكل عنده الجـرأة يهاجم الحكومة برئيسها ؟

وكان كلامه يسرى فى دمى ، وكنت أحس أن عقـلى يطقطق ، ينهض من ركدته ليتمطى ويصحصح ، وأقـول لنفسى : دا أنا جاى من البلد جاهل . وكنت حين أتخيـل نفسى مكان فهمى ، أرتعش ، وتنهار سـاقى من تحتى ، وأقول : خليك هنا أحسن .. انت مش فاهم .

كنت أتمنى لو يصير صديقا لى ، لمـا عرفته وجـدته طيبا وابن حلال وصاحب صاحبه .

خلع فهمى قميصه ، وفرده على السلك المربوط وسط الحجـرة وقال لى : قم اغسـل وشـك . قلت له : فين ؟ أخرج يده من الباب وقال : هناك فيه زير وحنفية .

ولمـا رجعت وجدته يخرج لفات من حقيبته ، فردها على الجريدة ، وشـد « حلة » من تحت السرير بهـا

خبز ، وقعدنا لنأكل وكلمنى ، وحكى حكايتهم حين أتوا هنا للقبض عليه ، ستة ضباط أصغرهم بدبورتين ، حاصروا السطح وأمروا مخبرين بالوقوف على كل شباك والضابط الكبير دفع الباب برجله ، ولم يجد غير صديقه الذى يشاركه الحجرة غاطسا فى قعر السرير مستغرقا فى سابع نومة ، وسأله : زميلك فين ؟ قال له : مسافر . فتحوا الحقائب وأكياس المراتب ، وكسروا دولاب الخشب ، أخذوا الكتب ، وحين وجدوا صورة لامرأة عارية ، تفلوا فى الهواء، وقالوا : وكمان له فى النسوان . وقطعوها ، ودسها واحد منهم فى عب صديق فهمى ، ولما تمرد على ذلك ، ضربوه على أصداغه ، وربطوا عينيه بمنديل ، وسحبوه معهم ، وهناك أرادوا اجباره على الكلام ، وفى النهاية ضغطوا عليه ليوقع على ورقة ، وقالوا له : دا اقرار لما تعرف عنه حاجة تبلغنا .

- وقص على حكايات أخرى ،و شربنا الشاى مرتين ، ودخنا سجائر علبته السوبر ، ثم مددنا فى قعر السرير ، وفتح كتابا وقرأ لى ، وأنا أسمع حتى سقطت فى النوم .

عبـــاءة الليـــل

كنت أنا وهى والليـــل فى مدينـــة كبيرة نائمـــة ، بعد أن فارقنـــا الصديق سكران بخمر حانتين ، وقف يودعنـــا ليلحق بآخر قطـــار ، ولم يدعنا معـــه ، فهو يسكن الغرفة الضيقة التى لا تتســـع الا له ولزوجته وبنتيه .

قلنا لليل : يا ليل هل تأوينا ؟

قال الليل : أنا أكتم سر العشـــاق والسراق ، وأستر فرشـــة الزوجين ، وأدارى نومة الفقير .

قلنا : فنحن عاشـــقان غريبان ، ليست هذه مدينتنا ، غادرنا بلدنا لانهـــا تترصد للمحبين وتفضح سر القلوب .

قال : شقا طريقكما وأنا معكما أسمع وأرى .

وكان طريقنا طويلا وبعيدا ، قلت : آخذها الى غرفتى التى منحها لى صديق .. ولأجرب معهـا الحب ، ولأكون مثل كل الأحبة ، الذين قرأت عنهم ، ورأيتهم على الشاشة يتأبطون الأذرع منطلقين فى خفـة يرمى الهواء شعرهما الى الوراء ، وحولهما تطير النسمة المغـردة، وينمو الزهـر المبتسم ، وتزقزق لهم بلابل لا تراها العين ، وخفت لأن صديقى حين أسكننى قال : لا تصحب الى غرفتك امرأة ، فأنا أخاف الناس ، ولا تأتى آخر الليل سكران ، فأنا لا أحب الخمر التى حرمها الله .

تمنيت لو أجـد البوابة الحديد مفتوحة ، سنمرق منها خفيـة ، وأدير فى ثقب الباب مفتاحى الكتوم ولا أشـعل مصباحا ففى الظلمة سأرى على نور وجههـا ، ولا أرفع صوتا ، فيكفينا همس القلوب .

هناك وجدت المصباح يرش على البوابة نوره المتشبث كبرص ، وسقطت خيالاتنا على قضبان الحـديد المربوطة بالسلسلة الغليظة ، نظرت الى أعلى ، ولم أقدر أن أرفـع صوتى لأنادى عليه ، وغاظنى انغلاق نافذتى القريبة ، نظرت الى وجهها الشارد وقلت : لا تحزنى .

ــ طالما أنا معك لا يهم .

والليل كان قابعـا هناك فى الارض الخـلاء ، يكتم ضحكة قلت : يا ليل .

قال : أنا لا أغلق البوابات ، فأرضى رحبـة ، ويدى بعرض السماء .

قلنا : ولكننا نريد جدارا وفراشا .
قال : أنا لا أملك غير عباءتى السوداء .
قلت لها : فلنذهب الى صديق قريب من هنا ، ينام النهار ويسهر الليل .
قالت : كيف ننام عند غريب ؟
أحطتها بذراعى ، وقلت : لا تبالى .. فقلبه مفتوح .

كان النور يخرج مع الموسيقى من شيش نافذته المغلق ، مددت يدى على آخرها ، وخبطت طرف النافذة ، فارتجفت الضلفتان ، وتردد صوت الطرقات كأنها فى فراغ ، وكانت هى واقفة عند البوابة ترقب الباب من الداخل ، خبطت مرة أخرى ، وناديته باسمه ، وفى المرة الثالثة انطفأ النور ، وخفت صوت الموسيقى ، وانتظرنا ، فلم يخرج أحد ، قالت : لا فائدة .

وعدنا نعبر بقع الماء بين البيوت المغلقة الابواب ، كانت فى الصمت وفى الضوء القليل شبيهة بشواهد القبور ، وألف عين من وراء النوافذ ترقبنا ، وتحبس ضحكات متشفية .

والليل العجوز يسير خلفنا يخب فى عباءته ، كنا نسبقه بمسافة ، وهو على آخر ظلنا المتعرج مجتهدا فى مشيه يحاول اللحاق بنا ، يرفع العباءة المهترئة من حين لآخر ويلقيها على كتفه فتلم بعثرة لحيته الرمادية .

على أول الشارع الكبير كانت السيارات المجنونة تمرق مسرعة ، سرنا على الرصيف فرحين بالنور الغامر ، وان كان قد جمع باصفراره قليلا من الوحشة فى جانب القلب . خرج علينا الشرطى فجأة من وراء سور تنتشر

عليه الاشـــجار المتشابكة ظلمة قاتمـــة كان وجهه مشدودا ، وأسنانهسوداء بل كللباسهكانأسود،البيريهوالسترةوالسروال والنعـــل ، تقـــدم نحونا ، فكدنا نرجع بظهورنا فارين . حمامتان سقطتا بغفلة على خيال مآتة ، وكانتا تمنيـــان نفسيهما بحب وفير فى أرض خصيبة .

قلنا : نحن أخوان ذاهبان الى قريب يحتضر .

ونظر خلفنا فرأى الشبح الكهـــل ، فتراجع وقال : لا تفعلاها مرة أخرى .. فان الدولة تدفع لى راتبى من اجل أن أمنع أمثالكما من السير أثناء الليل .

وانطلقنا ، فى البدء سرنا بجوار السور متلاصـــقين نخاف من انقضاض اليـــد على أقفيتنا وبعد أن سرنا مسافة معقـــولة ، مشينا متحررين ، ولكننا لم نتكلم ، فقط نظـــرنا الى الوراء لنطمئن ، فواجهتنا الابتسامة فى الوجه العجوز ، والفم المفتوح كطاقة مقبرة مهجورة .

فى المقهى المفتوحة على الميدان الواسع والتى تظـــل ساهرة طول الليل جلسنا على منضـــدة ، طلبنـــا قهـــوة تعين على السهر ، وتقاوم النوم الذى بدأ يتسرب ، أمسكت بكفهـــا البـــاردة وقلت : أنا آسف . قالت مبتسمة : أنا سعيدة .

قلت : كنت أود أن .. قالت : وأنا ..

ولا أدرى ان كانت عرفت مقصدى ، فأنا كنت أمنى نفسى بليلة ينفتح فيها القلب ويقول لها كل ما طواه تحت لســـانه المتلعثم ، وكنت أريد أن أقول لها كلام العشـــاق المعتاد ، لقد أحببتك من أول نظرة ، جرحتنى عيونك ، وحين عرفتك قلت هى الفتاة الممنوحة لى من السماء ، ســـأدفن أحلامى فى صدرك وأطوى فى صدرى أحلامك ، واننى أرى

فى عينيــك مدينتى البهيجة بأضوائها وطيرها المحلق فى سماء لا تعرف الغيم ولا تعــرف المطر صحو مقيم وأبدى وشمس رحيمة لا تغرب .

وفى اللحظة التى أردت تأمل عينيها لا تشجع وأقول ، رأيته على المنضــدة البعيدة قابعا تحت مصباحها الذى ينز ضــوءا بلون الســل ، كان يهــرش جنبــه بيــــد مقشوطة الجلد ، ويبدو كأنه مشغول عنا ، ثم رفع لى عينه فجأة ، فارتد بصرى ، وماتت الكلمات فى حلقى .

وكنت أريد أن أقول له : لم نعـــد بحاجة اليك .. فنحن فى ونس الناس والمصابيح ، ولكنه واصــل الهرش ، وواصــل بحلقته كمن يقول : لقد استعنتما بى وانا لا اتخلى بسهولة .

قالت : القهوة لم تفعل شيئاً والنوم غلبنى .

قلت : اقتربى منى ونامى على كتفى .

ارتاح راسها على كتفى ، واملت براسى ، وجعلت الخــد على الخــد ، ويدها كانت تحت المنضده فى يدى ، قلت فى أذنها : أحبك .

وحركت شفتيها بخــدر هو مزيج من خــدر النــوم والحب الهادىء ، وكانها تردد كلمتى وغفونا ، كان نوما جميلا خاليا من الاحــلام والكوابيس ، قامت تفرك عينيها وترجع شعرها الى الوراء ،و انا بربشت بجفونى وهالنى أن النهار كان يحبو فى الميدان يحاول أن يشب على الجدران العاليه ، ولمــا نظرت الى المنضده البعيده وجدتها فارغه ، والكرسى كان مائلا على طرفها ، ولكننا لم نسمع نسقسقه العصافير ، فقط راينا صحوة مدينه كبيرة ، تدور فى شوارعها سيارات مضببة الزجاج . وعربات تجــرها الخيل ، عليها أقفاص الفاكهة والخضار ، وجنود يجرون حول اســطوانه الميدان ، وكان صـــوت أحذيتهم الثقيــلة ، يسمع من موضعنا .

الفهـــــــرس

الصفحة

رقم الايداع بدار الكتب
٨٤/٧٣٧١

مطبعة عـــابدين

٩ ش المقاولين ت ٩٠٢٧٧٤



١٦ شارع أسماعيل محمد ــ الزمالك ــ القاهرة
ت : ٨٠٢٨٣٦

١٠٠